تاريخ المشروع الإصلاحي
منذ نشأة المملكة السعودية إلى انتقال المعارضة من لندن

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد.

حظي تاريخ "المملكة العربية السعودية" الحديث باهتمام عدد من الكتاب والباحثين والمؤسسات الثقافية والأكاديمية، لكن جلّ هذا الاهتمام كان منصبا على الجوانب السياسية أو الاقتصادية العامة وكان متأثرا بهيمنة الحكم السعودي الذي يلزم برؤية واحدة.

ولذلك فإن المكتبة تفتقر إلى تدوين لتاريخ تطور الحركة الإسلامية في المملكة العربية السعودية ودخولها غمار السياسة ومن ثم مواجهتها للحكم السعودي.

نشاط "المعارضة" في لندن ليس بداية لما يعتبر الإسلام السياسي في المملكة، بل إنه في الحقيقة ثمرة عمل طويل لم يظهر للعيان إلا قليل منه، والمسيرة التي سبقت ذلك كانت مسيرة مضنية مليئة بالعمل خلف الكواليس والإجراءات المعقدة والطويلة والمفاوضات والاتصالات والتحديات والمجازفات، ونرى أن من حق الأمة وحق الدعاة العاملين على وجه الخصوص الاطلاع على أهم تفاصيل هذه المسيرة، والتعرف على خطواتها المتميزة.

في هذا الكتاب نفتح بعض ملفات هذا التاريخ الهام ونبسط تفاصيل بعض الحوادث من خلال مشاهدة ومعايشة شخصية، ونقدمها مع وصف ما أحاط بها من ظروف وتطورات.

ورغم أن هذه المذكرات رواية شخصية فإن حوادثها عامة وذات أثر شامل والجانب الشخصي محدود فيها. ومع ذلك فهي لا تمثل إلا بداية تدوين لتاريخ تلك الفترة، ولا يمكن استكمال هذا التدوين إلا بعد أن يزاح كابوس القمع والإرهاب الذي يمنع كثيرا ممن يمكن أن يساهموا في هذا التدوين من إضافة ما لديهم.

جاء ترتيب هذه المذكرات في هذا الكتيب زمنيا حسب تتابع الحوادث، وتركز الحديث فيها على الفترة التي أهملها المؤرخون وهي منذ قبيل أزمة الخليج سنة 1990م، إلى أن خرجت "المعارضة" إلى لندن سنة 1994م، ومن أجل إعانة القارئ على فهم الحوادث وتركيبة المجتمع فقد جاء في الفصلين الأولين استعراض لواقع المملكة سياسيا واجتماعيا وتربويا منذ الدولة السعودية الأولى إلى أزمة الخليج.

ونحن إذ نعرض هذا التاريخ أو نسجل تلك المذكرات فإننا لانسردها تاريخا مجردا، بل نحاول بسطها في وعاء فكري نقدي يعين على فهم مبررات كل خطوة وعلاقتها بالمسيرة الشاملة، ونسعى كذلك من خلال نقد ذاتي إلى تقويم تلك المسيرة والخطوات التي مرت بها، و إذ نبادر بنقد ذاتنا إنما نقدم تجربة لما نرى أن تكون عليه الحركة في بسط منهجها وقبول الرأي الآخر والنظر في عيوبها قبل أن يراها الآخرون.

نسأل الله أن يكشف الغمة ويعين الآخرين ممن شاركوا في هذه المسيرة على المساهمة في تدوين هذه الحقبة الهامة من تاريخ بلاد الحرمين، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

آل سعود والإسلام والحركة الإصلاحية

في هذا الفصل سنضع مقدمة عن حقبة لم نعايشها كلنا، وربما أدركها بعض المخضرمين من أبناء "وآباء" الحركة، لأن تلك الحقبة لم تكن مرسومة من قبل أي فئة، بل كانت تتابع أحداث ومواقف ومجموعة من الأفعال وردود الأفعال، إلى أن انتهت بالعمل السياسي المؤصل للحركة الإسلامية إلى ما هو عليه في الوقت الحاضر.

تعارف معظم المؤرخين على اعتبار الدولة السعودية الحالية امتدادا للدولتين السعوديتين الأولى (1750 - 1820م) والثانية، والدولة المهمة هي

الأولى التي قامت على تحالف بين محمد بن سعود وبين محمد بن عبدالوهاب، وفرضت نفسها مدة من الزمن إلى أن قضى المصريون عليها بتوجيه من الآستانة، وكانت تلك الدولة واسعة الأرجاء استحوذت على كل شبه جزيرة العرب، وامتدت في أعماق العراق والأردن، ودامت حوالي ستين سنة، أما الدولة الثانية فلم تكن دولة بالمعنى المتعارف عليه، بل كانت إمارة استطاعت بسط نفوذها على عدد من القرى في أواسط نجد، ولم تدم إلا سنين معدودة.

وحينما نشأ عبدالعزيز مؤسس الدولة الحالية في الكويت حدّث نفسه باستعادة ملك الآباء، وعزم فعلا على ذلك، وغزا الرياض بهذا الشعار، ففشلت حملته تلك فشلا ذريعا، وبعدها غيّر الشعار، ورفع شعار تجديد دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وبعث السفراء يهيئون الأرضية لذلك فنجح نجاحا باهرا، ولذا فإن نشأة هذه الدولة مربوطة تاريخا وانتسابا على الأقل بالدولة الأولى، وحينما كوّن عبدالعزيز قاعدة له في الرياض كانت راية الدين عاملا قويا في ترجيح كفته على ابن رشيد وعلى الشريف حسين.

حركة الإخوان

وبلغت الدوافع الدينية أوجها حينما نشأت وترعرعت حركة ''الإخوان'' من البادية، وتكونت هذه الجماعة إثر تأسيس مجموعة مما يسمى بالهُجر، وهي قرىً صغيرة يأوي إليها البادية يتعلمون القرآن والدين و"الجهاد"، واختلطت جلافة البادية باندفاع الجهاد وطلب الجنة، فأصبحت تلك المجموعات فرقا ضاربة تجتاح الخصم بكل سهولة لما لديها من شجاعة وإقدام.

وما أن استقر لعبدالعزيز المقام حتى أصبحت تلك المجموعات منافسة له، فعبدالعزيز لا يريد أي مزيد من الجهاد، ويريد أن يثبت مفهوم الدولة القطرية، وهذه المجموعة تريد استمرار الجهاد، وترفض الاعتراف بالحدود، وتلا ذلك التشكيك بولاء الدولة للإسلام، وتفاقمت مشكلة الإخوان إلى أن تحولت إلى معارضة مسلحة، انتهت بمواجهة مع جيش عبدالعزيز في معركة السبلة التي قضى فيها على الحركة، وألقى بقادتها في السجون إلى أن ماتوا وقيل قتلوا.

وقد تعرضت حركة الإخوان هذه لدراسات عدة عربية وغير عربية ولكن التاريخ غالبا يكتبه الطرف المنتصر وبالتالي لا ينال الطرف الآخر حظه من الإنصاف، وفي اعتقادنا فإن تلك الفترة تحتاج إلى إعادة كتابة ودراسة وتمحيص، ونحسب أن كل الدراسات التي أجريت، إما أن تكون موجهة من قبل جهات معنية أو أن تكون متأثرة بسياسات معينة. وتعتبر أكثر الدراسات عدلا في هذا الجانب ''كتاب السعوديون والحل الإسلامي''، الطبعة الأولى للاستاذ محمد جلال كشك، وهناك رسائل ماجستير ودكتوراه لبعض الباحثين نشر فيها من الحقائق ما ليس في غيرها، ونعتقد أن من الضروري التعجيل باستنطاق من بقي على قيد الحياة من الإخوان لتدوين تاريخهم.

أما من ناحية التقويم التاريخي، فإنه لم يكن التمكين من نصيب تلك الحركة بالضرورة –رغم سلامة نياتها– لماذا؟ لأن الحركة تحمل عدة مشاكل جوهرية، الأولى: أنها حركة قامت على الرفض أكثر من قيامها على البناء، بمعنى أنها رفضت كل جديد، ورفضت الواقع، ولم تقدم بديلا واضحا لما رفضته، وثانيا: عاشت الحركة عزلة حقيقية عن غالبية المجتمع الحضري بسبب تشكيلتها البدوية، وعاشت عزلة عن العلماء كذلك، واكتفت بأنصاف طلبة العلم ممن كانوا فيها، وثالث مشاكل الحركة: أنها لم تمض بقيادة واضحة ولا برأي واحد ولا موقف محدد من القضايا المصيرية، وأهمها الموقف من السلطان، واضطربت الحركة فكريا بين مفهوم طاعة ولي الأمر أو ''الإمام'' كما كانوا يسمونه وبين رفض مواقفه السياسية، ولم يتضح لدى قادتها كيف يجب أن يكون الموقف، فانهارت معنويات الأفراد، وتلاشى الحماس الذي كان يدفعهم لمقاتلة أعداء عبدالعزيز بصفتهم مشركين أو على الأقل يستحقون القتال، وساد بينهم جدل شديد حول شرعية قتال جيش عبدالعزيز.

ونظرا للعجز الحضاري في تلك الحركة لم تترك أثرا اجتماعيا يذكر، وتلاشت آثارها، ولكنها أثرت بشكل غير مباشر حين قوّت مركز العلماء، حيث لم يستطع عبدالعزيز توجيه ضربة قاصمة لهم إلا بالاتكاء على العلماء، وهكذا قوّوا مركز العلماء بشكل غير مباشر، وأحس عبدالعزيز أنه لن يستطيع الاستغناء عن دعم العلماء في تثبيت أركان دولته.

الدولة القطرية

لقد كان الإخوان أكبر تحد يواجهه عبدالعزيز منذ أن أنشأ الدولة، ولا شك أنه تجاوزه بنجاح، ورغم أن ذلك النجاح أتى بالاستعانة بالعلماء كما ذكرنا، إلا أن حسم المعركة لصالح عبدالعزيز بهذه النهاية المحزنة أعطى لعبدالعزيز فرصة ترسيخ مفهوم الاستبداد، ومكنه من تأكيد مفهوم القطرية،

ولذلك فقد تغيرت تصرفات عبدالعزيز وثقته بنفسه وقوة سطوته بعد انتصاره في هذه المعركة، ورغم الاحترام الذي استمر يلقاه العلماء بعد ذلك فقد ضعف اهتمامهم بقضايا السياسة، وساد منذئذ مفهوم ''ولي الأمر أعرف بالمصلحة'' وهي في اعتقادنا أسلوب مطور لمفهوم ''ما لقيصر لقيصر وما لله لله''، ولذلك لم يكلف العلماء أنفسهم – في تلك الفترة – النظر في تعاملات عبدالعزيز الدولية والأنظمة والقوانين التي سنها بطريقة تخالف الشريعة فضلا عن ترسيخ النظام الملكي الوراثي وولاية العهد.

ما بعد الاخوان

بعد حركة الأخوان التي انقرضت تقريبا لم يكن هناك أي شكل من أشكال العمل السياسي، فيما عدا محاولات فردية لانتقاد الحاكم كان أبرزها بعض مواقف الشيخ عبدالعزيز بن باز والشيخ عبدالرحمن السعدي والشيخ بن عتيق، وكان معظمها يدور حول العلاقة بالكفار وبعض القضايا الداخلية، مثل سوء توزيع الأموال وإلخ..، وكان الملك عبدالعزيز ذكيا في التعامل مع هذه القضايا وكان لديه قدرة فائقة على امتصاص غضب العلماء دون أن يدخل معهم في صراع مكشوف، أو أن يضطر إلى سجنهم وعقابهم.

وكانت بعض تلك القصص والحوادث جميلة وطريفة في معناها وتدل في تفاصيلها على مدى عمق أثر الدين في المجتمع وقوته كعامل في بناء الدولة وسجل التاريخ حادثتين تضامنت فيهما الجماهير مع العلماء ضد عبد العزيز، الأولى للشيخ سعد بن عتيق مع أهل الرياض، والثانية للشيخ بن باز مع أهالي الخرج..، والمقام لايسع لذكر تفاصيل تلك الحوادث.

حركة جهيمان

استمر الحال دون تغيير طوال عهد الملك عبدالعزيز والملك سعود والملك فيصل وردحا من حياة الملك خالد، ورغم أن هذه الفترة كانت حافلة بالتغيرات السياسية الكبيرة ونشأة التيارات العلمانية من قومية وناصرية ويسارية، إلا أن النشاط الإسلامي السياسي في المملكة أثناءها كان غائبا، وفيما عدا التيار الديني الرسمي لم تقدم أي طروحات إسلامية سياسية، ولربما كان جمود أو هدوء التيار السياسي في تلك الفترة يُعزى إلى اسباب منها، عدم دخول الدولة في صراع مكشوف مع التيار الإسلامي و شعور كثير من الإسلاميين بأن من الأولى عدم تبني معارضة الدولة بسبب قيام الدولة حسب تصورهم بدور جيد في مقاومة التيارات العلمانية، ولاعتقادهم أن من مصلحة العمل للإسلام في تلك الفترة مهادنتها.

وأيا كان الأمر فلم تكن الحركة الإسلامية تشكل معارضة بالمفهوم السياسي حتى عام1980 م، حين وقعت الحادثة المشهورة، حادثة دخول الحرم والاعتصام فيه بقيادة جهيمان، وما ترتب عليها من مواجهة عسكرية مع القوات النظامية السعودية.

ورغم أن بواعث نشوء هذه الحركة كان مختلفا قليلا عن حركة الأخوان، إلا أنها تشابهت معها في طابعها العام، كحركة رفض أكثر من كونها حركة بناء، وفيما اتسمت به من غلو، لذلك كان حظها في النجاح محدودا جدا، بل إن القضاء عليها لم يستغرق أسابيع، ولم تحظ بتعاطف يذكر من قبل المسلمين سواء محليا أو على نطاق العالم الإسلامي، لأن دخول الحرم ورفع السلاح فيه أمر يستنكره عامة الناس مهما كانت دوافعه، ولكن من المهم الإشارة هنا إلى أن من بواعث نشأة هذه الحركة تبني الدولة عموما لمشروع إفساد الشعب من خلال الإعلام والتعليم والسماح بانتشار التحلل والتغريب في المجتمع، فقد أثار انتشار الفساد سخط هذه المجموعة، التي تبنت أسلوب المواجهة المباشرة مع الدولة لدرجة الاقتتال وسفك الدماء، ولكن كسابقتها حركة الإخوان كانت حركة جهيمان منقطعة، ما أن نشأت حتى اندثرت، إلا أنها أثرت كثيرا في النظام الذي شعر بحساسية المجتمع تجاه عملية التغريب، وما رافقها من قضايا الفساد الاجتماعي، وأيقن النظام بضرورة إبطاء هذه العملية على الرغم مما توفر لدى أركانه من نوايا لحقن كم هائل من البرامج عبر أجهزة الإعلام والتعليم، فجاءت حركة جهيمان لتشعر النظام بالرفض لمشروع الإفساد.

ولئن كانت هذه النتيجة ثمرة لحركة جهيمان العتيبي، فإنها سياسيا لم تترك أثرا ذا بال في ضمير المجتمع السعودي بعد ذلك.

حادثتان هامتان

قبل أزمة الخليج لم تشهد البلاد على المستوى السياسي تطورا مهما، فيما عدا حدثين لم يكونا في ذاتهما سياسيين، ولكن كانت لهما ظلال سياسية.

سعيد الغامدي والحداثة

أما أولهما فكان في بادئ الأمر حدثا بسيطا، لكن سرعان ما تحو ل إلى قضية وطنية كبيرة، بدأ ذلك بتبني أحد طلبة العلم الشاب سعيد الغامدي – وهو من منطقة أبها – دراسة حركة ''الحداثة'' في المملكة على مستوى الأدباء، ويقصد بالحداثة هنا ذلك التيار الجديد الذي يستهدف حرب النشاط الفكري لدى المثقفين من الإسلام بحجة التحديث، ولم يكن ذلك في حقيقته تحديثا، بل حقنا للعلمانية في أذهان المثقفين، وقد نجحت المجموعة المتزعمة لهذا التيار –وفيها الشعراء والكتاب والناقدين– في السيطرة شبه التامة على جميع الصفحات الأدبية في المجلات والجرائد في المملكة، واستطاع الدكتور سعيد الغامدي أن يتتبع نشاط هذه المجموعة وأن يوثق استنتاجاته في مادة مسجلة على شريطين، ما لبثت نسخ الشريطين أن انتشرت بسرعة فاقت التصور في جميع أنحاء المملكة، وغدا موضوعها قضية الشارع، فانهالت التقارير على وزارة الداخلية مفيدة بأن ملايين النسخ قد وزعت في كافة أنحاء المملكة، بل إن جامعة الملك سعود وحدها وز ع فيها ما لا يقل عن 60 ألف نسخة، وكان كثير من الناس يتبرعون بدفع تكاليف الاستنساخ والتوزيع في تظاهرة فريدة من نوعها لمقاومة العلمنة.

أثبتت هذه التجربة للنظام وللعلمانيين بأن مستوى الوعي لدى عامة الناس كان أعلى بكثير مما كانوا يتصورون، وبأن الغيرة المغروزة في أذهان الشعب على الإسلام قوية جدا، فلولا هذه الغيرة وذلك الحماس للدفاع عن الإسلام لما تبنى الشعب بنفسه توزيع هذا الشريط لمحاصرة الحداثيين فكريا، كانت هذه الحادثة دليلا قويا على مدى تعاطف عامة الناس مع الإسلام، ليس الإسلام بوصفه عادة أو شعيرة فحسب بل الإسلام بوصفه عقيدة ومنهجا لأن القضية المطروحة في ذلك الشريط لم تكن حول قدسية الحرم أو شخصية النبي ﷺ، أو أي من القضايا التي لا يختلف المسلمون في التعاطف معها، بل كانت قضايا فكرية متخصصة تحتاج إلى درجة عالية من النضج والتميز في النظر إلى القضايا الإسلامية.

عايض القرني والأمير

وأما الحادثة الثانية فكانت محاولة الأمير خالد الفيصل الإساءة إلى سمعة الشيخ عايض القرني بتدبير مؤامرة لاتهامه باللواط، وذلك من خلال إغراء طفل في المنطقة بادعاء ذلك لتوريط الشيخ، سجن الشيخ ثم ما لبث أن برأ من قبل المحكمة، فانهالت الاتصالات والاحتجاجات من قبل الناس، وتوجه الآلاف منهم إلى أبها للتعبير عن تأييدهم للشيخ وتنديدهم بما حيك ضده، وغصت الشوارع المحيطة بمنزل الشيخ بالزائرين من جميع أنحاء المملكة، حتى أن الذين كانوا يحجزون للسفر إلى أبها في تلك الأيام كان يعجزهم الحصول على حجز قبل أسبوع من تاريخ السفر. بعد ذلك غادر عايض القرني أبها متوجها إلى الرياض وجدة والقصيم وغيرها في جولة كان يلقي خلالها المحاضرات والدروس فيتوافد الناس من كل حدب وصوب عليه من باب التأييد له والاهتمام به، وكانت أبرز هذه المحاضرات تلك التي ألقاها في جامع الملك خالد في منطقة أم الحمام في الرياض حيث قدر الحضور بعشرين ألف شخص.

كلا هاتين الحادثتين وقعتا قبل أزمة الخليج، وبينما كانت الأولى دليلا على الوعي العام والمقاومة الشعبية لما كان يسعى العلمانيون لتحقيقه من نزع الصبغة الإسلامية عن المجتمع، كانت الثانية دليلا على تعاطف الناس مع أهل العلم وزعماء التيار الإسلامي.

استمر الحال على ذلك إلى أن تفجرت أزمة الخليج، التي أحدثت انقلابا كبيرا في وضع العمل الإسلامي في المملكة الذي عبر منذ الأزمة بثلاث مراحل: الأولى بدأت بغزو العراق للكويت إلى أن أخرج منها تماما، الثانية بدأت بخطاب العلماء حتى إعلان إنشاء لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية، الثالثة بدأت منذ الإعلان عن لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية إلى هذا الوقت .

التغيرات الاجتماعية والتربوية والثقافية والانفجار السياسي

التطورات والأحداث السياسية ليست في الحقيقة إلا تجليات نهائية للواقع الاجتماعي والحضاري للمجتمعات، وفي الدول المتحضرة تظهر تلك التجليات بشكل منتظم وسهل، لأن القيادات السياسية في تلك البلاد تمثل المجتمع نفسه من خلال مؤسسات تعكس مباشرة واقع القواعد

البشرية في تلك المجتمعات، أما في البلاد التي فقدت تلك المؤسسات وعاشت فصاما بين قيادتها السياسية وقواعدها البشرية، فإن حوادثها السياسية في كثير من الأحيان تبدو تصرفات فردية للحكام، ولا تظهر انعكاسا لتغير اجتماعي حقيقي إلا بعد تراكمات كبيرة أو بعد صدمات حضارية تربك التوازن القسري المفروض الذي منع ذلك الانعكاس فيظهر بعدها دفعة واحدة.

انفصام

وقد حصل ذلك في جزيرة العرب خلال أزمة الخليج تماما، فقد كان مسار القيادة السياسية منفصلا بشكل كبير عن خط التطور الاجتماعي والمسيرة الثقافية لسكان الجزيرة، ولقد تراكمت قبل أزمة الخليج تغيرات كثيرة كانت مستورة بالغطاء السياسي المنفصم عنها، وكانت تلك التغيرات تنتظر الصدمة التي تزيح ذلك الغطاء وتجلي تلك التراكمات المهمة، فجاءت الصدمة متمثلة في أزمة الخليج، فانكشف اللثام وطفت التغيرات على السطح، واكتشف الذين حسبوا حساباتهم على أساس الواقع السياسي قبل الأزمة أن تلك الحسابات خاطئة، وأنه لابد من إعادة دراسة الواقع الاجتماعي هناك، غير أن بعض المتابعين للتغيير الاجتماعي نفسه توقعوا شيئا من هذه التغيرات، ولم تفاجئهم تداعيات أزمة الخليج، لأن تناولهم للقضية جاء من العمق ولم يأت من السطح، ولعل هذا هو الذي يفسر الانفجار السياسي لنشاط الحركة الإسلامية في المملكة واستلامها لزمام المبادرة بعد أزمة الخليج الثانية.

نحاول الآن وصف التغيرات الاجتماعية والتربوية والثقافية التي هيأت لذلك الانفجار السياسي، وأثبتت أن الإسلاميين هم أصحاب لقضية الإصلاح وأصحاب مشروع التغيير، وأن لديهم نفسا طويلا في الصراع الفكري والمنازلة الحضارية، وسنتناول نفس الفترة التي تم تناولها في العدد الماضي سابقا، أي بين نشأة المملكة وأزمة الخليج الثانية، ولكن من وجه آخر وزاوية أخرى، والمبحثان ضروريان باعتبارهما مقدمة للحديث عن تداعيات أزمة الخليج والتطورات السياسية الداخلية التي تبعتها.

عزلة عن العالم

حينما نشأت المملكة في مطلع القرن العشرين كانت تركيبة المجتمع بسيطة جدا، بل بدائية بالتعريف المدني الحديث. ولقد كان غالب الجزيرة العربية معزولا عن العالم، فيما عدا مكة والمدينة اللتان اتصلتا بالعالم من خلال الحج، ورغم أن لهذه العزلة سببا كونيا قدريا هو الموقع الجغرافي والطبيعة القاسية لجزيرة العرب، إلا أن أسبابا أخرى ظرفية ساهمت في تلك العزلة، من أهمها أن غالب جزيرة العرب لم يتعرض للغزو الغربي الذي تعرضت له بلاد المسلمين، وبذلك لم يحصل احتكاك يذكر مع الحضارة الغربية التي دقت أبواب العالم الإسلامي منذ بدايات القرن التاسع عشر الميلادي، ومما ينبغي الاعتراف به أن الحضارة الغربية في ذلك الأثناء ''وحتى الآن'' كانت هي السائدة في العالم بل كانت هي العالم بنفسه، والعزلة عنها كانت عزلة عن العالم كله، ومما لا شك فيه أن سلامة جزيرة العرب من الغزو الغربي كانت له آثاره الفكرية والأخلاقية الحميدة في عدم تلوث أفكار وأخلاق سكان الجزيرة بالغرب، لكن غياب ذلك الاحتكاك ترتب عليه قضايا أخرى يغفل عنها كثير من المحللين، ولا يضعونها في الاعتبار حين يعدون مجتمع الجزيرة نسخة من المجتمعات العربية، ويعتبرون الدورة الحضارية متشابهة في تلك المجتمعات.

من القضايا التي ترتبت على غياب الاحتكاك عدم تنامي الحس العدائي للمستعمر الغربي والإحساس بضرورة إخراجه من بلاد المسلمين التي احتلها بسبب انعدام المعاناة المباشرة من ذلك، ولقد كان لهذا الشعور دور كبير في بعث الحركات الجهادية في أنحاء العالم الإسلامي لإخراج الغزاة من بلاد المسلمين، ومن ثم ما صاحب ذلك من تجارب عسكرية وسياسية وحركية مضت كمرحلة مهمة في تاريخ تلك المجتمعات، واختفت من تاريخ الجزيرة الحديث، وهذا لا ينفي بالطبع الموقف النظري لأبناء الجزيرة من الكفار الذي لم ينفعل كثيرا بواقع عملي.

و ترتب على سلامة الجزيرة من الاستعمار غياب التأثر بالجوانب التنظيمية والإدارية، والمفاهيم الدستورية واللغة السياسية، وغيرها من المفاهيم والتطبيقات التي استصحبها وجود المستعمرين، والتي كان في بعضها جوانب إيجابية ثبت نفعها على المستوى التنظيمي والإداري والثقافي العام، ونتج عن ذلك مجتمع لا يعرف ألف باء السياسة الحديثة، ويعتبر المفردات السياسية طلاسم ورموز غير مفهومة، وهذا بالتأكيد ليس ثناءا على الاستعمار لكنه وصف لبعض الحقائق باعتبار الواقع المجرد.

لم تكن الجزيرة معزولة عن الاستعمار والعالم الغربي فحسب، بل كانت معزولة حتى عن العالم الإسلامي، ولم يعايش سكان الجزيرة بسبب تلك العزلة المستجدات في واقع المجتمعات الإسلامية ونشوء حركات التجديد والإصلاح التي انتشرت في العالم الإسلامي.

في مقابل تلك العزلة لم توجد مصادر اكتفاء ذاتي للثقافة والتحضر من داخل المجتمع، بل كان المجتمع يعاني من الجهل والتخلف، سواء بالمعنى الثقافي العام، أو بالمعنى الشرعي الخاص، فبعض طلبة العلم والمشايخ كانوا يدرسون بنسق معين وحدود معينة تضيق كثيرا عن مفهوم شمولية الإسلام وعالميته وسعة الشريعة وقدرتها على استيعاب كل المستجدات العلمية المدنية الحديثة، وقد سعى الملك عبدالعزيز لترسيخ هذا الواقع من خلال تبطئة مسيرة التعليم، حيث كان يعتقد أن الاستعجال في توسيع دائرة التعليم يذكي روح المعارضة السياسية، ويشجع على الرغبة في الثورة والتمرد على الاستبداد، ويقال إن الملك عبدالعزيز جعل ذلك جزءا من وصيته لأولاده، ومن المفارقة أن ابنه سلطان يتندر على إخوانه بتلك الوصية، ويتهمهم بأنهم السبب في بروز المعارضة الإسلامية حين خالفوا وصية والدهم بتوسيع الجامعات والمدارس والمعاهد والمؤسسات التعليمية.

الملك عبد العزيز والمفاهيم غير الشرعية

استطاع الملك عبدالعزيز من جهة أخرى استثمار إنجازه في توحيد أجزاء كبيرة تحت ملكه، وإنجازه في ضبط الأمن، في إقناع الشعب أن تلك الإنجازات هي غاية المرام عرفا وشرعا من إنشاء الدولة، ونجح في إقناع الشعب اعتمادا على نفس المنطق، بأن نقد الحاكم سوف يؤدي إلى خسارة تلك الإنجازات، ونظرا لأن الشعب كان مهيئا حينذاك لقبول هذه المقولات بسبب ما عاناه من الفوضى والنهب والسلب وانعدام الأمن فقد تحولت شعارات الملك عبدالعزيز هذه إلى عقائد، وترسخت في أذهان الناس ولاتزال بقاياها إلى الآن، وقد تمكن الملك عبدالعزيز بعد أن حقن تلك الدعوى في عقول وقلوب الناس من فرض بعض المفاهيم غير الشرعية على التيار المشيخي والشرعي، ومن ثم على من يتبعهم من العامة.

نعم للقطرية

أول هذه المفاهيم هو أن المملكة ليست مسئولة إلا عما يقع داخل حدودها، وليس على عاتقها أي تبعة شرعية تجاه المسلمين في أنحاء العالم، وكانت تطبيقات الملك عبدالعزيز لهذا المفهوم في العلاقات والمواقف صارمة، إذ لم يكتف بالتطبيق، بل نص على ذلك صراحة في مؤتمر عالمي عقد في مكة في العشرينات الميلادية، وقد نشأ تبعا لذلك جيل كامل يؤمن بمفهوم القطرية في الإسلام، ويقبل بفكرة التابعية لآل سعود، وكاد مفهوم الإسلام للعالمية أن يندثر حتى في أذهان طلبة العلم والعلماء، ويحكي كثير ممن حضروا مجالس وحلقات بعض طلبة العلم عن طريقتهم التي تدل على اعتقاد القطرية ونبذ العالمية.

الشيوخ أبخص

أما المفهوم الثاني الذي استطاع الملك عبدالعزيز ترسيخه من خلال التباهي بإنجازاته فهو مفهوم ''ولي الأمر أعرف بالمصلحة'' أو بالعامية ''الشيوخ أبخص''، وخطورة هذا المفهوم تربويا وفكريا تأتي من المرونة والمطاطية في تطبيقه واستعماله، حيث يتسع هذا المصطلح ليشمل قضايا شرعية ثابتة بالكتاب والسنة بحجة أنها من المصالح المتروكة للإمام، وهو أعرف بالمصلحة وأعرف بتقديرها، والإشكال هنا أنه بما أن طاعة ولي الأمر واجبة، فإن اجتهاده في هذه – المصلحة – ملزم للأمة، وتجب عليهم فيه الطاعة، ومع مرور الزمن وتتابع الأجيال تحول هذا المفهوم إلى عرف اجتماعي، بل اتسع المعنى ليتحول إلى ما يشبه العصمة للإمام باعتبار اجتهاداته دائما ملزمة بل ومصيبة.

في تلك الأثناء التي كان مجتمع الجزيرة يتربى فيها على تلك المفاهيم الخاطئة، كان العالم الإسلامي يعج بالحركات الجهادية المناهضة للاستعمار، وبالجماعات والحركات الإسلامية التي تدعو إلى شمولية الإسلام وعالميته، لكن المملكة بقيت معزولة عن تلك التطورات ولم تجد المفاهيم التي فرضها عبدالعزيز مفاهيم منافسة، وذلك بسبب إقفال الباب أمام كل فكر وافد حتى لو كان حقا، ومن الحكايات الطريفة في هذا السياق أن الشيخ حسن البنا رحمه الله مؤسس حركة الإخوان المسلمين في مصر التقى الملك عبدالعزيز في إحدى المناسبات، وعرض عليه فتح شعبة للإخوان في المملكة، فأجابه الملك عبدالعزيز بأن لا مانع أن تكون المملكة كلها شعبة، ويكون هو ''الملك عبدالعزيز'' رئيسها، ثم قطع الملك عبدالعزيز الاقتراح تماما، فقال: ''كلنا إخوان مسلمون ولا حاجة لشعب''، مما يدل على أن الملك عبدالعزيز حرص جديا على عزل المجتمع عن الأفكار التي لا توافق آرائه.

تطورات نوعية

لقد تسببت العزلة والانغلاق والرتابة في حياة المجتمع في عدم بروز أي مظهر يدل على تطور نوعي، وكان العمل الإسلامي التربوي الوحيد في تلك الفترة – التي امتدت بين العشرينات والخمسينات الميلادية – هو نشاط بعض العلماء وطلبة العلم بالأسلوب التقليدي، وبقي الحال كذلك طيلة فترة الملك عبدالعزيز. وبعد وفاة الملك عبدالعزيز واعتلاء الملك سعود ومن بعده فيصل للعرش حصلت عوامل جديدة أدت إلى تطورات هامة على المستوى التربوي والثقافي.

العامل الأول تمثل في تعرض المملكة للهجمة الناصرية القومية وللمد اليساري الاشتراكي من خلال الإعلام ومن خلال تبني كثير من الأعيان، بل من أبناء الأسرة لهذه التيارات، ولا شك أن الصراع الذي تولد بين الحكم القائم وتلك الهجمة ولد حسّا سياسيا عند الناس، هذا رغم أن تلك الهجمة قضي عليها تماما .

العامل الثاني هو قيام الملك فيصل بفرض عدد كبير من الأنظمة المستمدة من غير الشريعة في مؤسسات الدولة، رغم معارضة عدد كبير من العلماء، بحجة أن هذه أمور تنظيمية إدارية وليست تشريعية، ولقد سبب ذلك على امتداد الزمن استمراءا من قبل الناس عموما والعلماء خصوصا لفكرة القوانين الوضعية، وكانت هذه بلا شك وسيلة من وسائل علمنة النظام وتعويد المجتمع على هذه العلمنة، ولا بد من الاعتراف هنا بأن ذلك قد تحقق فعلا، وأن حساسية بعض العلماء تجاه التشريعات غير الإسلامية بسبب تلك الحيلة قد تلاشت.

العامل الثالث وهو الأهم كان مرتبطا بإيواء المملكة للإسلاميين الذين فروا من نظام عبدالناصر وغيره من أنظمة العرب، وسواء كان احتضانهم نكاية بعبد الناصر أو إيواء للمسلمين فهذا ليس مهما هنا، والمهم هو أن تلك المجموعات اختلطت واحتكت بالمجتمع في المملكة وتبادلت معه المعرفة والتجربة، وكانت أول نموذج لتبادل التجربة والخبرة في العمل الإسلامي داخل المملكة في العصر الحديث، ويعتقد معظم المفكرين الذين عايشوا تلك الفترة أن التلاقح الذي تم بين أفكار التوحيد وسلامة المنهج التي دعا إليها الشيخ مُحَّد بن عبدالوهاب رحمه الله، وأفكار العمل الإسلامي الحركي الذي جلبه القادمون إلى الجزيرة، نتج عنه نموذج فريد من نماذج العمل الإسلامي الناضج الذي عبر عن نفسه سياسيا خلال وبعد أزمة الخليج.

لقد امتزجت بساطة المجتمع وفطرية الناس والتدين العام مع الفكر التجديدي لشمولية الإسلام وعالميته ومفهوم ضرورة التعاون بشكل منظم لتحقيق الأهداف المشروعة، ساعد على تحقيق ذلك التطور النسبي في المجتمع مدنيا، حيث انتشرت المدارس والجامعات، وظهرت المؤسسات شبه الاجتماعية، وأصبحت تلك المحافل مظلات مناسبة لنشر الفكرة الإسلامية، وإخراجها عن دائرة المسجد والحلقة الشرعية، إلى المدرسة والجامعة والشارع والمنزل، وأيضا إلى الدائرة الرسمية.

عصر النفط

بعد أن دخلت المملكة عصر النفط في الستينات والسبعينات الميلادية، وتسهلت المواصلات، وكثرت الحاجة للعقول واليد الفنية من جميع أنحاء العالم بما في ذلك البلاد الإسلامية أصبح الاتصال الحضاري بالعالم حتمية لا يمكن الفرار منها، وبذلك استطاعت كل التيارات إيصال فكرتها إلى مجتمع المملكة من خلال تلك الحركة البشرية، ولم يقتصر ذلك على التيارات الإسلامية بل تعداه إلى التيارات اليسارية والليبرالية والقومية، ورغم ذلك فقد بقي الطابع العام للمجتمع طابعا إسلاميا، وبقيت تركيبة المجتمع والعائلة سليمة ومتماسكة، ولم يظهر عليها ما أصاب المجتمعات الأخرى من تفكك وخلافات داخل العائلة الواحدة فضلا عن المجتمع، غير أن أيا من هذه التيارات لم يستطع تجاوز النقل النظري لأفكاره، ولم يتمكن أيا منها بالخروج للسطح بناءا اجتماعيا ظاهرا أو كيانا أو حزبا سياسيا معلنا رغم اتساع تلك التيارات أفقيا.

ومن خلال هذا الاتصال بالعالم انعكست معظم التجارب في العمل الإسلامي على المجتمع في المملكة، وبرز فيه كل الطيف الفكري الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، بدءا بجماعة التبليغ ومرورا بالإخوان المسلمين والسلفيين وانتهاء بجماعات التكفير، وقد حظي تيار الفكر الإخواني والفكر السلفي بحظ أكبر بكثير من سواهما في هذا التمثيل، غير أن هذه التيارات لم تتجاوز كونها امتدادا فكريا وثقافيا لتلك الحركات، ولم يوجد ما يدل على ارتباط حركي أو عضوي بتلك الجماعات في الخارج بسبب شعور بعض أهل الجزيرة بأسبقيتهم في الإسلام ورفضهم للانقياد إسلاميا من قبل آخرين.

من جهة أخرى لم تتجاوز هذه التيارات – فيما عدا جهيمان العتيبي – النشاط التربوي، هذا رغم شمولية الطرح وعالمية الهدف، غير أن الإنجاز التربوي ذاته لم يكن هينا، فقد استطاعت تلك التيارات صياغة أعداد هائلة من الإسلاميين الواعين من كل شرائح المجتمع، بدءا برجل الشارع والعامل والفني وطالب الثانوية وانتهاء بالأستاذ الجامعي والقاضي ورجل الأعمال.

العلماء الشباب

أما النشاط التقليدي للدعوة المتمثل في دروس وحلقات المساجد فلم يتوقف بل اتسع وانتعش، وكان بينه وبين النشاط الجديد مواءمة وانسجام، وقد أصبح عدد كبير من علماء الشباب الذين تأثروا بالفكر التجديدي من أصحاب الحلقات الكبيرة في المساجد، وتجاوز عدد طلابهم ومريديهم الآلاف، وبدأت هذه الحلقات بالانتعاش منذ بداية الثمانينات الميلادية، وتحولت إلى منتديات ضخمة في نهاية ذلك العقد، وأصبحت المشاركة فيها من علامات الوجاهة بعد أن كان الأمر على خلاف ذلك في الماضي.

وخلال هذه الفترة أي فترة الثمانينات برز علماء الشباب كوجوه جديدة للمرجعية، وضمت حلقاتهم أعدادا كبيرة من الطلاب والمريدين، وممن برز في هذه الفترة من خلال تلك الحلقات الكبيرة الشيخ سلمان العودة والشيخ سفر الحوالي والشيخ عايض القرني والشيخ ناصر العمر والشيخ عوض القرني وغيرهم من علماء الصحوة، وقد تميز نشاط هؤلاء بميزة هامة هي قدرة أولئك الرموز على الجمع بين الحديث عن المستجدات والتعليق على الأحداث بوعي ومتابعة وبين التمكن من المواضيع الشرعية الأصيلة مثل الفقه والعقيدة والتفسير، وكانت دروس الشيخ سلمان في شرح كتاب بلوغ المرام التي بلغت عدة مئات من الدروس من أهم الأنشطة الفقهية في تلك الفترة، كما كانت دروس الشيخ سفر الحوالي في شرح كتاب العقيدة الطحاوية من الدروس العميقة في علم العقيدة، وكان سلمان وسفر وناصر العمر وعايض القرني وغيرهم من المشايخ يستفتون من قبل العامة في شؤونهم الحياتية، وشكل ذلك بلا شك تطورا مهما كونه حوّل أولئك العلماء إلى مراجع فقهية مقبولة من قبل الشارع، ولقد تحولت هذه الأسماء إلى رموز إسلامية حتى خارج المملكة، حين شاركت في التعليق على أحداث هامة، فقد اشتهر الشيخ سلمان بتعليقه على كتاب الشيخ محمد الغزالي ''السنة النبوية'' بمجموعة أشرطة وكتاب بعنوان ''حوار هادئ مع الشيخ الغزالي''، ولقيت دروس الشيخ سلمان تلك قبولا عريضا في المملكة والعالم الإسلامي، كما اشتهر الشيخ سفر الحوالي باهتمامه بقضية العلمانية وبحثه في جذورها الفكرية والتاريخية، وكانت المؤتمرات الإسلامية في أوروبا وأمريكا تتسابق على دعوة هؤلاء المشايخ للمشاركة في أنشطتها في تلك الفترة.

ومن الظواهر التي تميز بها نشاط هؤلاء الرموز محافظتهم على درجة عالية من الاحترام والعلاقة الجيدة مع التيار المشيخي التقليدي رغم الاختلاف معه في قضايا كثيرة، ولذلك لم يبرز أي نوع من الشرخ أو الفجوة بين العلماء في المملكة، وكانت تلك العلاقة الوثيقة سبب في منع بعض الضربات لشيوخ الشباب، وهذه الخصائص التي اختلفت عن تركيبة العمل الإسلامي خارج المملكة يغفل عنها بعض الباحثين، ولذلك يستغربون بعض نتائج الأحداث بسبب قياسهم على تجربة البلاد الأخرى.

المؤسسات الإسلامية

تطورت مؤسسات الدولة التي تحمل الشعار الإسلامي خلال نفس الفترة وكثرت وتنوعت، ففي حين اقتصرت في البداية على دار الفتيا، وهيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد تأسست بعد ذلك رابطة العالم الإسلامي والندوة العالمية للشباب الإسلامي، وتطورت كذلك المؤسسات الإسلامية التعليمية، فامتدت المعاهد العلمية في جميع أنحاء المملكة، وأنشئت جامعتان إسلاميتان الأولى الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة والثانية جامعة الإمام محمد بن سعود، ثم أنشئت أيضا جامعة أم القرى في مكة، وانتشرت كذلك جماعات ومدارس تحفيظ القرآن، وساعد هذا التكوين الجديد أيا كان الهدف من إنشائه في إنعاش العمل التربوي الإسلامي، ولكن لم تكد الثمانينات أن تنصرم حتى قضي على الدور التربوي ''المحدود'' لهذه المؤسسات بعد حشرها بالموظفين المنفذين لبرامج الدولة.

انتعاش تربوي

ولقد أدت هذه العوامل مجتمعة في نهاية الثمانينات إلى انتعاش الحركة الإسلامية تربويا رغم انحسارها السياسي، ونظرا لغياب الطرح السياسي لم

تشعر الدولة بخطر مباشر يهدد الكيان، واعتبرت انتشار ظاهرة التدين انعكاسا طبيعيا لواقع الصحوة في العالم الإسلامي. ولم تتصرف الدولة قبل أزمة الخليج بما يدل على أي محاولة لاستئصال أي عمل إسلامي سوى ما حصل تجاه جماعة جهيمان وبعض ذيول القضية المتصلة بها، ولم تقف موقفا حادا تجاه أي من العلماء والمشايخ سوى أشخاص قليلين لم يكونوا بذلك الثقل الذي يمثله المشايخ المعتقلون الآن.

بين الوضع الاجتماعي والسياسي

وقد أدى ذلك الوضع إلى صياغة تركيبة غير متناسقة، فالتيار الإسلامي قوي ومتنام تربويا، والدولة تتخلى أكثر فأكثر عن رسالتها الإسلامية، وفي نفس الوقت تأخذ من هذا النشاط موقف المراقب الحذر ولا تواجهه.

لقد أوجد هذا الواقع شعورا عند معظم الإسلاميين بضرورة تجنب المواجهة، بل وتجنب أي نقد مباشر وصريح للنظام خوفا على ما كان يعتقد أنه مكتسبات تربوية كبيرة يمكن أن تنهار.

أضف إلى ذلك أن هيبة الدولة قبل أزمة الخليج كانت قوية، ولم يكن أحد يفكر بإمكانية ضعف النظام أو انهياره أو انكشافه، ثم إن الدولة كانت ناجحة تماما في إقناع الناس وطلبة العلم أنها نظام شرعي، وناجحة كذلك في فرض بعض المفاهيم التي تحاصر كل من يفكر بالإصلاح من خلال أساليب معينة أحدثت درجة عالية من الإرهاب الفكري الذي منع تلك المبادرات قبل الأزمة.

الفكر الإسلامي يسيطر .. ولكن..

ونستطيع القول أن الفكر الإسلامي سيطر بأطيافه المختلفة على الشرائح المهمة في المجتمع، وتحول إلى واقع ملموس متمثل في ظواهر إسلامية كثيرة في البيت والشارع والمدرسة وغيرها من المرافق الاجتماعية، ورغم أن ذلك لم ينجح في فرض أي تغيير سياسي ملموس إلا أنه فرض تغييرا اجتماعيا تمثل في رفع مستوى الذوق الإسلامي عند الناس، واستعادة هيبة الدين واحترام الرموز الدينية، والأهم من ذلك أن التيار الإسلامي أزاح عن الساحة الاجتماعية كل آثار التيار القومي والليبرالي واليساري، واعترف رموز تلك التيارات بهزيمتهم المنكرة على المستوى الاجتماعي على يد الإسلاميين، ويذكر أحد الذين كانوا في موقع رفيع في إحدى تلك التيارات أنهم قرروا منذ نهاية السبعينات وبداية الثمانينات الاستغناء عن البعد الاجتماعي في برنامجهم، والاعتماد كليا على اختراق النظام الحاكم والتأثير من خلال الإعلام.

ومما ينبغي الاعتراف به أن تلك التيارات حققت ذلك الهدف، واستطاعت من خلال عملية انبطاح جماعية اختراق النظام الحاكم وتحديدا الأسرة الحاكمة، ساعدهم في ذلك عوامل منها استعداد الأسرة وخاصة بعد حكم الملك فهد لتبني تلك التيارات في المناصب الحساسة، والثاني تخوف الإسلاميين من خوض غمار السياسة ودخول معترك المناصب، والثالث عدم استعداد آل سعود للسماح للشخصيات النزيهة الشريفة والمتدينة من الوصول إلى أي منصب حساس، بسبب تخوفهم من مشاركة هؤلاء بشكل مباشر أو غير مباشر في القرار السياسي أو مجرد إطلاعهم على مجريات السياسية.

لقد تولد عن تلك التركيبة المتمثلة في الاكتساح الإسلامي على مستوي المجتمع، والغياب الإسلامي على مستوى الإعلام والمناصب الحساسة، ذلك الانفصام الذي أشير إليه في بداية البحث بين القيادة السياسية والقاعدة البشرية، ويبدو أن الرفض الاجتماعي كان متشبعا إلى درجة الاحتقان ينتظر الفرصة التي يعبر فيها عن نفسه، وكانت أزمة الخليج هي الصدمة الحضارية والحدث التاريخي الذي دفع الواقع الاجتماعي لأن يتجلى سياسيا وبشكل صارخ فكان ما كان.

مراحل تطور الصحوة

خلال أزمة وحرب الخليج الثانية

مع بداية أزمة الخليج الثانية بدخول الجيش العراقي للكويت، دخلت الصحوة في الجزيرة طورا جديدا، كانت سمته الأساسية وجود عدد كبير من المبادرات الفردية والجماعية الهامة، والتي تركت أثرا اجتماعيا وسياسيا كبيرا، واستمرت هذه المرحلة إلى ما بعد انتهاء المعركة البرية، حيث بدأ طور

المبادرات المنهجية والتي كان في مقدمتها خطاب العلماء ومذكرة النصيحة، بعد ذلك جاءت بداية العمل المؤسسي والذي تجسد في إعلان تأسيس لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية، أعقبه الانتقال إلى طور "المعارضة" وذلك بعد خروج اللجنة إلى لندن، ثم أخيرا طور المواجهة الأمنية في الداخل بعد اعتقال كبار طلبة العلم وفي مقدمتهم الشيخين سلمان العودة وسفر الحوالي، ونتحدث في هذا البحث عن الفترة الواقعة فيما بين اجتياح الكويت وانتهاء المعركة البرية.

كنا قد ذكرنا سابقا كيف مهد التغيير الاجتماعي الذي حصل في السبعينات والثمانينات الميلادية للعمل السياسي الذي فجرته أزمة الخليج، ذلك العمل لم يفجره فقط دخول العراق للكويت، بل ما تبع ذلك من نتائج وتفاعلات حركت ضمير الأمة وأفرزت سلسلة التطورات التي نقف حاليا على قمتها، والتي كان من أهمها عجز النظام السعودي وانكشافه إعلاميا وسياسيا وعسكريا، ومن ثم إقدامه على الخطوة الخطيرة التي ظن ولايزال يظن أنها هي التي أنقذته من الخطر الماحق ألا وهي الاستعانة بالقوات الأمريكية على أرض الجزيرة العربية، وسواء كان الملك فهد هو الذي استدعى الأمريكان أو أن الأمريكان دخلوا محتلين وطلبوا منه مباركة وجودهم فالحصيلة واحدة.

لقد كان صمت النظام وعجزه عن مجرد نقل الحدث في وسائل الإعلام لعدة أيام دليلا صارخا على هشاشته وورقيته وارتباكه الشديد، فمن الممكن تصور قوة تأثير الصدمة، ومن الممكن أيضا تصور حدوث أخطاء في ردود الأفعال والمواقف المستعجلة، لكن الذي لا يمكن تصوره هو أن تتكلم وسائل إعلام العالم كلها عن الحدث الذي وقع في أطراف البلد، ثم لا تسمع عنه في وسائل الإعلام المحلية شيئا على الإطلاق.

الأهم من ذلك والأمر الذي صدم كثيرا من العقلاء والمفكرين هو قفزة الذعر التي قام بها النظام باتجاه الأمريكان، من دون أن يتخذ أي إجراء داخل البلد في حشد الجيش أو التعبئة العامة أو حتى الاستعانة بالعرب والمسلمين ، حيث تم تجاوز كل ذلك والارتماء في أحضان الأمريكان الذين ترك لهم كافة تفاصيل والإدارة والتحكم بكل الأزمة. أدت هذه القفزة الوقحة باتجاه الأمريكان إلى أن يتأكد الشعب من أمرين:

الأول: أن كل ما كان يتشدق به النظام من عقود السلاح وقوة الجيش والأواكس وطائرات (ف 15) وغيرها كلها سراب وضحك على الذقون، وأن كل تلك الأموال كان مصيرها جيوب المتنفذين والمرتشين.

الثاني: أن حكام البلاد ليسوا حكامها الفعليين، إذ ليس لديهم أي غيرة على بلادهم وحكمهم، وأنهم مستعجلون في الاتكاء على الأمريكان الحكام الفعليين للمملكة لحماية العرش السعودي، وقد تحدث الشارع عن كثير من مظاهر الهلع بين علية القوم، وكيف أن الأسرة الحاكمة لم يكن عندها أدنى تردد في التخلي عن البلد، ''إذا وقع الفأس في الرأس''، حيث أعد ت ما يقارب أربعين طائرة مدنية لهروب أعضاء الأسرة المهمين فورا إلى الغرب فيما لو دخل الجيش العراقي للمملكة.

وقعت هذه الأحداث على الناس كالصواعق المتتالية، وهم ما بين مذهول لما يجري وبين غاضب على التلاعب بمصيرهم من قبل قلة غير أمينة، كان جلّ همها تأمين هروبها وتأمين حماية أبنائها.

على جانب آخر كان للصفوة من المفكرين والقيادات العلمية والشعبية شأن مختلف، ورغم أن مجموعة من هؤلاء ''حمشتها'' الأحداث، وانساقت عقولهم وراء وصف وزيف الإعلام ، وبنيت أفكارهم وفق ما يريد النظام، لكن العدد الأكبر من هؤلاء بدأ يتميز صفهم ويبرز فكرهم منذ بواكير الأزمة، فبالنسبة لهذه الفئة لم تكن دعوة الأمريكان والاستعانة بهم حدثا أهم من صدور فتوى هيئة كبار العلماء بشرعية هذه الخطوة، وكيف تم ذلك بلا دليل شرعي ولا استنارة بآية ولا حديث، وكيف اختزلت القضية الشرعية الضخمة التي يتوقف عندها جهابذة العلماء بكلمة واحدة ''الضرورة''، ولربما كانت هذه الفتوى تطورا لا يقل أهمية عن دخول القوات الأمريكية ودخول العراق للكويت.

سفر الحوالي يقول الحق

لقد كانت تلك الفتوى بمثابة أول سقوط للمؤسسة الدينية الرسمية التي اتكأ عليها النظام في شرعيته، وكانت أول مرة يتحدث بها الناس عن الفتاوى التي تصدر لتبرير انحراف النظام واقترافه للجرائم الكبرى، لقد كان مجرد تقصير العلماء عن قول الحق أمرا محتملا عند الناس، اعتقادا منهم أن العلماء ربما يقومون بدورهم وراء الأسوار وخلف الكواليس، لكن لم يخطر ببال طلبة العلم أن يفتي العلماء الذين يعتبرون أعضاء في هيئة "كبار" العلماء فتوى يخالفون فيها الشرع ويراعون فيها الحاكم، لكن مع ذلك ومع أن هذه بحد ذاتها كافية لضرب الشرعية، فقد كان لابد من بديل يحمل الراية ويصدع بالحق الأبلج حتى يؤدي فرض الكفاية في التبليغ، وهنا قيض الله الشيخ المجاهد سفر بن عبدالرحمن الحوالي ليفضح المشروع الأمريكي في الخليج من ألفه إلى يائه، وهو–وفقه الله وفك أسره– لم يتحدث عن هيئة كبار العلماء، ولم يخطئهم مباشرة، لكن فحوى

كلامه يشير إلى أن الهيئة تنفذ المشروع الأمريكي من حيث لا تعلم، أما قضية الاستعانة بالأمريكان فقد نسفها الشيخ نسفا من جذورها.
كان ذلك في محاضرتين إحداهما في جدة بعنوان ''فستذكرن ما أقول لكم'' والأخرى في الرياض بعنوان "ففروا إلى الله" وذلك بعد شهرين تقريبا من الأحداث أي في بداية سبتمبر (1990)، وقد كانت المحاضرتان مثل الغوث لأصحاب الفكر السليم والعقيدة الصحيحة، وأحسب أن الله تعالى سخر الشيخ سفر حتى لا يضيع الحق وينطلي الباطل على الناس، فقد تكلم الشيخ سفر بالآية وبالحديث وبأقوال العلماء وبالتاريخ وبالوثيقة وبالنقول عن كتابات الأمريكان أنفسهم، وبيّن للعامي من الناس ولطالب العلم حقيقة ما جرى ويجري، دون أن يسيء الأدب مع العلماء ودون أن يستفز أحدا.

الشيخ سفر مقابل من؟

ولم تمض أيام على إلقاء المحاضرتين حتى بلغ عدد نسخها من الأشرطة عدة ملايين في كل أنحاء المملكة، بل العالم، وأذكر شخصيا أننا عشنا غربة حقيقية، وضاقت علينا الدنيا بما رحبت في الفترة ما بين فتوى هيئة كبار العلماء بجواز الاستعانة بالأمريكان وبين شريط سفر الحوالي هذا، وقد جاءنا هذا الشريط كالفرج الذي انتعشنا به، وأحسب أن ما قام به الشيخ سفر من دور أهم بكثيرمن مجرد الصدع بالحق في وجه حاكم، لقد صدع الشيخ سفر بالحق في وجه كل المؤسسة الدينية وكل أعضائها مجتمعين، وكانت مواجهة المؤسسة الدينية أصعب بكثيرمن مجرد مواجهة النظام.
وأصبحت أشرطة محاضرات الشيخ سفر المادة الوحيدة المواجهة للحملة الإعلامية والدينية الرسمية للدولة متمثلة في هيئة كبار العلماء وأحاد العلماء من أعضاء الهيئة وغيرهم، وكذلك من الأزهر ومن غيره من المؤسسات الدينية الرسمية في العالم الإسلامي، ولقد شهد كاتب هذه السطور ذات ليلة خلال تلك الأيام مأدبة عشاء لأحد الأعيان حضرها أحد الأمراء الكبار، وكان واضحا على ذلك الأمير المسؤول الشعور بالحصار جر اء ما طرح في ذلك الشريط اليتيم من تفنيد لفتوى استقدام الأمريكان.
الحصيلة التي نريد أن ننتهي إليها هنا هي أن موقف الشيخ سفر كان نقلة نوعية في إفهام المجتمع أن التوقيع عن الله وإبلاغ رسالة العلماء ووراثة النبوة ليست بالضرورة منوطة بالعالم الرسمي أو المفتي أو القاضي، وشتان بين كلام مؤصل قوي ومتضمن لتفاصيل كيد الأعداء ومعرفة الذات، وبين اختزال الدين كله في كلمة واحدة هي ''الضرورة''!!.

دور سلمان العودة

في الوقت الذي تصدى الشيخ سفر لتلك المسؤولية وقام بها خير قيام، كان الشيخ سلمان العودة يقوم بدور آخر، حيث ألقى في نفس الفترة محاضرة هامة كانت بمثابة رسالة جامعة، تصف بشكل غير مباشر حال البلد وإلى أين تؤول، اشتهرت تلك المحاضرة بعنوان ''أسباب سقوط الدول'' ولقد بهر الشيخ السامعين بغزارة علمه وسعة أفقه وكان فحوى المحاضرة إنباء واستشراف غير مباشر لمستقبل جزيرة العرب في كلام مقنع رصين.
ورغم أن الشيخ سلمان لم يتطرق إلى قضية استقدام الأمريكان، إلا أن هذا الشريط انتشر هو الآخر، وارتفعت أسهم الشيخ سلمان أضعافا مضاعفة عند الناس، وكان نموذجا آخر للعالم المستقل الذي يحق له أن يكون مرجعا، بدل أولئك الذين يعينهم الحاكم فيفتون بما يريد.

العمل الشعبي

في تلك الفترة التي لمع فيها نجم الشيخين سلمان وسفر، كانت هناك نجوم أخرى يسطع ضوؤها بين الحين والآخر، لكن مما ينبغي الاعتراف به مادمنا في مقام نقد الذات، هو الإشارة إلى أن الأنشطة العامة في تلك الفترة لم تكن عملا متكاملا يشكل مشروعا واحدا، بل كانت أعمالا متفرقة منها الخيري ومنها الدعوي ومنها السياسي شابها شيء من الفوضوية والسطحية، ولقد انتدبت فئة نفسها لإغاثة لاجئي الكويت، وعرّض كثير من الشباب أنفسهم للخطر في سبيل إنقاذ الكويتيين وتأمين سلامتهم، ولاشك أن ذلك ترك أثرا طيبا لدى أولئك اللاجئين، وتحرك عدد كبير من الشباب في مجال الدعوة والوعظ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان لذلك النشاط دور بارز في حماية المجتمع من هجمة الفساد التي جلبها انفتاح الحرب، غير أن التطور الأهم من ذلك هو الاتجاه نحو العمل الجماعي الشعبي الذي تصدى له بعض الرموز وعلى رأسهم

الشيخ عبدالمحسن العبيكان، وكانت بداية هذا العمل متواضعة بسيطة، ثم تطور إلى عمل ذي أهمية قصوى، لكن ضعف الخبرة بشؤون السياسة ومراوغات الحكام ساعدت على إجهاض ذلك المشروع الطموح في بداياته.

عمل جماعي منتظم

كان الباعث لتلك الفكرة عدد من الشباب المتحمس أقنعوا الشيخ عبدالمحسن العبيكان والشيخ عبدالله بن جبرين والشيخ عبدالرحمن البراك والشيخ سعيد بن زعير بالذهاب معهم إلى بعض الأماكن الحساسة في البلد، وذلك بعد شهرين تقريبا من اجتياح الكويت، حيث أروهم بأنفسهم بعض مظاهر الفساد المستشري وضرورة العمل بشكل جماعي منظم لمنع استشراء ذلك الفساد، وحينما اطلع هذا النفر من العلماء على الواقع صدموا وقرروا الدعوة إلى اجتماع جماهيري مفتوح في أحد الجوامع الكبيرة في الرياض وهو جامع الجوهرة، وتم الاجتماع بالفعل وحضره بضع آلاف من الشباب، وتحدث الخطيب تلو الآخر، وقيل لأول مرة بشكل علني في تاريخ المملكة ''لابد من عمل جماعي منظم''، وكان بعض الشباب قد أعد استمارات تسجيل في جماعة خيرية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونجح ذلك الاجتماع بشكل كبير، وشكل بحق اجتماعا ناجحا وحالة حضارية تبشر بالخير، وكان الشيخ عبدالمحسن العبيكان هو الشخصية الرئيسية في الاجتماع، واتخذ المجتمعون قرارا بالالتقاء مرة أخرى ودعوة آخرين لحضور اللقاء وترتيب عملية الجماعة الخيرية هذه، وانفض الاجتماع بعد الاتفاق على تفويض الشيخ عبدالمحسن العبيكان مسؤولية متابعة اللقاء الثاني.

الأمير سلمان يتدخل

وهنا سارع الأمير سلمان إلى استدعاء الشيخ عبدالمحسن واحتد النقاش بينهما، وهدد الأمير سلمان وتوعد وأرغد وأزبد من أجل أن يثني الشيخ عن فكرته، لكن الشيخ أصر وقرر المضي قدما في ذلك الاجتماع، وهنا تدخل طرف آخر هو الشيخ عبدالعزيز بن باز، وبحيلة خبيثة من الأمير سلمان استطاع إقناع الشيخ بعقد الاجتماع بدار الإفتاء بدلا من جامع الجوهرة، واستطاع إقناعه كذلك بضرورة حضوره هو أي الأمير سلمان شخصيا، واستطاع إقناعه كذلك أن يكون الحضور مقتصرا على عدد من طلبة العلم وبعض الشخصيات، ولعل موافقة الشيخ العبيكان على تلك الشروط هي التي وأدت المشروع في وقت مبكر.

المظاهرة جرعة منشطة

وفيما بين الاجتماعين حصلت حادثة هامة جدا وهي المظاهرة النسائية في الرياض والتي طالبت بحق النساء في قيادة السيارات، ولن نتحدث الآن عن تلك المظاهرة، لكن نذكر هنا أن قيامها بين الاجتماع الأول الثاني أعطى فكرة الإعداد للاجتماع الثاني دفعة هائلة بسبب الغضبة التي اجتاحت الشارع بعد تلك المظاهرة، ثم عقد الاجتماع فعلا في نهايات شهر أكتوبر بالشروط التي وضعها الأمير سلمان حيث تم الاجتماع في دار الإفتاء، وبحضور الأمير سلمان شخصيا، وبعدد محدود لم يتجاوز المئة، وكان كاتب هذه السطور بين الحاضرين، وحوصرت دار الإفتاء بما يناهز العشرة آلاف متظاهر جاءوا مؤيدين للشيخ العبيكان، غير أن الشيخ العبيكان استطاع إقناع هؤلاء بالانصراف، وتم الاجتماع في داخل الدار بذلك العدد المحدود، واستطاع الأمير سلمان باتكائه على الشيخ بن باز إجهاض المشروع من خلال جر لسان الشيخ لأن يقول: "إن كل عمل لابد له من إذن ولي الأمر"، ومادام ولي الأمر حاضرا وهو أمير الرياض فالأمر متروك له، وحينها أجهض المشروع وأسقط في يد الشيخ عبدالمحسن العبيكان.

فشل ودرس

لكن رغم فشل هذه التجربة فقد كانت ثرية وتعلم الدعاة والحركيون منها الكثير، فقد كانت أول محاولة لربط طلبة العلم المتفرغين للقضايا الشرعية بأساتذة الجامعات وغيرهم من ناشطي المثقفين بشكل أكبر من مجرد التأييد والمحبة والتقدير والاحترام، وكأنما شيد بعد ذلك جسر متين بين عدد من المشايخ وبين ما يسمى "بالتكنوقراط" الإسلاميين، وامتزجت هناك ميزة العلم الشرعي والثقل الجماهيري للعلماء والقدرة على التخطيط

والترتيب والمنزلة الاجتماعية لأساتذة الجامعات، ولقد كان خطاب العلماء ومذكرة النصيحة ولجنة الدفاع حصيلة هذا التعاون المبارك، وكان الأمير سلمان هو أول من فطن إلى خطورة هذا التعاون، فكان يحاول في وقت مبكر دق إسفين بين الفريقين، ومن شدة حرصه على ذلك فلتت منه عبارة كاملة في يوم من الأيام بعد أن نفد صبره في إقناع أحد طلبة العلم "إن أساتذة الجامعات هم حفنة من العلمانيين"، وكان في تلك العبارة تصريح برغبته الداخلية في ضرب ذلك التعاون.

على صعيد التفاعلات الداخلية في صف الصفوة كانت تلك الأحداث هي الأهم في تلك الفترة، أي الفترة فيما بين دخول الجيش العراقي للكويت وما بين بداية حرب الخليج الثانية، واستثنينا في حديثنا قصة مظاهرة النساء في السيارات لأهميتها كحادثة مستقلة تدرس كظاهرة كاملة مع خلفياتها وملابساتها ونتائجها وآثارها.

وعندما قاربت الحرب على البداية لم يحصل أي حادث ذي بال على المستوي الاجتماعي، فربما حرصت كل الجهات على عدم فتح الباب حتى لا يقال فلان يضعف الجبهة الداخلية، واستمر الحال كذلك إلى أن انتهت الحرب، حيث بدأت حقبة جديدة هي حقبة المبادرات والتي كان أولها خطاب العلماء.

حقيقة المظاهرة النسائية الشهيرة المطالبة بقيادة السيارات

في غمرة أحداث الخليج وبينما كانت الآليات الأمريكية تطوف الجزيرة العربية، وحيث كانت الأذهان مشدودة تجاه تلك القضية الشرعية الحساسة، وقعت حادثة ما عرف بمظاهرة قيادة المرأة للسيارة، وما كادت الحادثة تقع حتى تناقلتها وسائل الإعلام الغربية الأوروبية والأمريكية.

انفجار

تفجرت هذه القضية كالقنبلة، واستحوذت على اهتمام الإعلام وأحدثت زوبعة في المجتمع، وشدت أذهان الجماهير عن كل أمر آخر، وبقيت ثورة جماهيرية مشتعلة أياما بل أسابيع، وهو الأمر الذي قد يعجب له من ليس له صلة وثيقة أو اطلاع كاف على الواقع المجتمعي لشعب الجزيرة إذ ارتبط هذا الأمر ارتباطا وثيقا بجملة من الأعراف والخصوصيات التي تعارف عليها المجتمع، والتي تفرض على من يريد استيعاب التحولات الاجتماعية الداخلية فهم تلك الخصوصيات والأ عراف، وذلك من أجل إحسان الحكم والتقويم وتفادي الانصراف إلى إطلاق الأحكام والتعميمات الخاطئة ودون استناد إلى مرجعية ذات صلة بالأحداث والخصوصية التي ميزت مجتمع الجزيرة.

في هذا المبحث نعرض لملابسات هذه الحادثة من خلال رؤية داخلية عاصرت الحدث نفسه وعاصرت رد الفعل تجاهه:

الرواية

انصرفنا من صلاة العشاء يوم الثلاثاء السابع من نوفمبر/تشرين ثاني 1990 وجلسنا نتحدث أمام مسجد السكن الجامعي، وإذ بأحد الزملاء من الأساتذة يأتينا بخبر غريب: هذا المساء فوجئ سكان السليمانية في الرياض بقاطرة من السيارات تقودها مجموعة من النساء في مسيرة راكبة تتوجه إلى أحد المواقف في نفس المنطقة، ثم تنزل السائقات وينظمن مهرجانا خطابيا تتعاقب عليه بعض النساء، وتبادر إحداهن بإلقاء حجابها ودوسه برجلها مع إطلاق الصيحات المعبرة عن هذا التصرف، بعضنا لم يصدق وبعضنا اعتبر الأمر طبيعيا، ولم نعلم في تلك اللحظة عن مدى انتشار الخبر بين الناس، وما هي ردود الفعل عليه، غير أن الوقت كان مبكرا، وكان من المتوقع من قبل الجمهور الذي يعتمد كليا على النقل

الشفوي للأخبار وتبادل المنشورات والأوراق المصورة كان من المتوقع أن لا يتابع الأمر إلا متأخرا، غير أنه لم تكد شمس اليوم التالي تشرق حتى كان الأمر مختلفا، فقد نقل الخبر في إذاعات العالم، وأصبح بعدها حديث الشارع ثم بدأت فورا الضجة وردود الأفعال، حيث تحدث الخطباء معترضين بقوة على ذلك، وألقيت المحاضرات، وعبّر الناس عن غضبهم الشديد تجاه الأمر بوسائل كثيرة منها إرسال أعداد هائلة من البرقيات للملك ولوزير الداخلية ولأمراء المناطق، ومنها توزيع أسماء النساء اللواتي قدن السيارات، ونجح بعضهم في تسريب محاضر الشرطة ومحاضر الهيئات التي تضمنت تفاصيل العملية، وأخيرا تجسد التعبير عن ذلك الغضب في الحضور الضخم لأعداد هائلة من المتظاهرين أمام دار الإفتاء للمشاركة في الاجتماع الذي دعا إليه الشيخ عبدالمحسن العبيكان، وكان واضحا من خلال الصيحات التي أطلقها هؤلاء أن دافع الحضور كان ذلك الحدث أكثر منه المشاركة في اجتماع الإفتاء، ولم يخفف الحملة اجتماع الهيئة الدائمة للإفتاء وإصدارها بيانا بتهدئة الأمر، ولم يخففها كذلك إصدار وزارة الداخلية قرارا يؤكد على منع النساء من قيادة السيارات.

مصطلحات جديدة

واستمرت حالة الرفض والتعبير عن الغضب حيال هذا التصرف إلى أن هدأت الحملة بشكل تدريجي مع الزمن، وانتشر مع تلك الحملة استعمال بعض المصطلحات التي لم يتعود عليها الناس مثل ''العلمانية والليبرالية''، وسمى الناس بعض الرموز التي وصفت برؤوس العلمانية، بعدها بدأت الصحافة الغربية تتحدث عن الموضوع، وحاول عدد منها ربطه بمستجدات أزمة الخليج، وأصبح الوضع الاجتماعي في المملكة لأول مرة موضع اهتمام من قبل تلك الصحافة.

المكاسب والخسائر

كان ذلك التتابع المجرد للأحداث كما جرت، فما الذي كان خلف الكواليس وما الذي أغضب الناس حقيقة وما هي مكاسب وخسائر الحدث؟ ومن كان حقيقة وراء تلك المظاهرة؟.

تفسير

في اعتقادنا فإن الحدث لم يكن على ظاهره، ولم تكن ردة الفعل كذلك على ظاهرها، والقضية في حقيقتها ذات بعدين اجتماعي وسياسي، أما البعد الشرعي أو الديني فمحدود جدا في نظرنا، وعلى قدر من سبرنا غوره من العدد الكبير من المشاركين في رد الفعل الضخم لم تكن المطالبة بالقيادة لذاتها أمرا كبيرا، ونحسب أن هذه الجموع حركها عاملان قويان الأول: الغضب الدفين في نفوس كثير من الشباب المتحمس تجاه الوجود الأمريكي في الوقت الذي لا يستطيع الشباب أن يعمل شيئا بسبب فتوى كبار العلماء، وكان التعبير عن الغضب من خلال رد الفعل تجاه المظاهرة النسائية متنفسا لذلك الغضب المكتوم، والعامل الثاني: أن المجموعة التي شاركت في تلك المسيرة لم تقصر مطالبها على مجرد القيادة بل تصرفت بما فهم منه تسفيه القيم الدينية وإهانة تعاليم الإسلام والثورة على الالتزام الشرعي، وحينما ردد الخطباء أن إحدى النساء خلعت الحجاب، ووضعته تحت قدمها ثارت ثائرة الجمهور واعتبروا ذلك تمردا على الدين نفسه، ولذلك لم تكن الضجة في رد الفعل موجهة إلى قضية قيادة المرأة للسيارة، بل كانت موجهة إلى ذلك التمرد وتلك الثورة.

المشروع العلماني

وهذا يفسر كيف أن حديث الشارع الغاضب تلك الأيام تجاوز كثيرا قضية قيادة المرأة إلى قضية المشروع العلماني والتغلغل العلماني في الدولة، وتداول الناس أسماء المتهمين بالعلمانية على شكل قوائم ومنشورات مصورة، وحتى حديث المثقفين والخطباء كان يدور حول ذلك، وتحدث في تلك الأيام كثير من العلماء حول الموضوع كان أبرزهم الشيخ سفر الحوالي الذي راجع في محاضرته مشروع إفساد الأسرة والمجتمع من خلال ما يسمى بتحرير المرأة، وكذلك الشيخ سلمان العودة الذي ألقى محاضرة بعنوان ''لسنا أغبياء بدرجة كافية'' شرح فيها أسلوب المستغربين في إفساد المجتمع، وبيّن أن تلك الحيل لا تنطلي على الأذهان، وأشار عدد كبير من المتحدثين من طرف خفي إلى تورط بعض الشخصيات العامة في ذلك

المشروع.

الظاهر والباطن

لقد كان الحدث من التجارب التاريخية التي يمكن تعلم الكثير منها حيث أنه لا يعقل أن تكون تلك المسيرة عملا ارتجاليا، دفع إليه حماس بعض النساء بعد رؤيتهن المجندات الأمريكيات يقدن السيارات، ونحن هنا لا نكتفي بمجرد التحليل للاستنتاج بأن هناك تورط لجهات مسؤولة من داخل الأسرة بالحدث، بل نشير إلى ثبوت ذلك من خلال معلومات تؤكد بأن أكثر من شخصية من كبار رجال الأسرة تورطوا في هذا العمل، وتعهدوا للمشاركين بالدعم والحماية، وتفيد المعلومات التي تم جمعها في تلك الفترة أن الهدف حقيقة لم يكن مجرد فرض مسألة قيادة المرأة للسيارة، بل كان الهدف هو التحضير للقيام بانقلاب اجتماعي ينسف القيم الدينية كأساس للنظام الاجتماعي، والشروع في ذلك من خلال المطالبة بقضية مقنعة وبسيطة مثل قيادة المرأة للسيارة.

واعتقدت الجهات التي أعدت المشروع أن نسف نظام القيم سيقضي على البقية الباقية من قوة الإسلام في جزيرة العرب، ويفسح المجال لإكمال المشروع التغريبي في الجزيرة، وكانت حسابات الذين أعدوا المشروع أن الفرصة جد مواتية، وأن انشغال الناس بالحرب والخطر القادم من العراق، وتعودهم على رؤية المجندات الأمريكيات وبعض الكويتيات قائدات للسيارات جعل الأرضية مناسبة لإتمام الفكرة، فإذا لم تنجح الفكرة فعلى الأقل يكون رد الفعل مشغلا للشباب المتحمس عن قضية دخول القوات الأمريكية للجزيرة الذي أصبح يتنامى فعلا بعد محاضرات الشيخ سفر الحوالي .

وتؤكد مصادر المعلومات أن الذين شاركوا في الإعداد لذلك المشروع يمثلون قوى غربية تعاونت مع الأطراف العلمانية في المملكة ومع عدد من رجالات الأسرة الكبار وفي مقدمة المتهمين سلمان بن عبدالعزيز وفيصل بن فهد!!، ويعتقد كثير من المطلعين أن معظم النساء اللواتي شاركن في المسيرة مغرر بهن لا يعلمن إلا قضية القيادة.

المظاهرة والجيش الأمريكي

على كل حال مضت المسيرة وحصل رد الفعل، ولذلك فلم يتحقق المطلب الأول في نسف النظام الاجتماعي في الجزيرة، فهل تحقق المطلب الثاني؟ بعبارة أخرى هل تم فعلا تحويل انتباه الشباب المتحمس عن قضية الوجود الأمريكي في الجزيرة؟ الجواب نعم ولا في نفس الوقت، نعم إذا قصدنا تحويل الانتباه المجرد، وهنا يجب أن نعترف أن وعي الشعب والشباب المسلم ليس بالدرجة التي تقد م مسألة الوجود الأمريكي على تلك القضية!، ومن المشاكل التي تعاني منها الشعوب المسلمة استعدادها للغضب للقضايا المتعلقة بالعرض والأخلاق والأحوال الشخصية أكثر من غضبها لقضايا الدين الكبرى، ورغم الثقافة الشرعية المنتشرة في الجزيرة فقد تجسدت هذه الحقيقة في تلك الحادثة بصورة واضحة، ولكن ذلك لا يعني بالضرورة أن الهدف الثاني تحقق وهو تحويل انتباه الشباب عن الغزو الأمريكي.

من الكاسب؟

ولعل ردة الفعل القوية هذه وما صاحبها من رفض للمشروع العلماني ورفض للرموز العلمانية حققت عدة نتائج تتعارض مع ما كان يتمناه راسمو المشروع، ومن هذه النتائج الكشف العريض لتلك التوجهات ورفع مستوى الحساسية عند الناس لقضية العلمانية التي لم يتعرفوا عليها من قبل، النتيجة الثانية إعادة الثقة بالكيان الاجتماعي الإسلامي، وتوجيه رسالة قوية إلى من أرادوا ضرب هذا الكيان عن مدى تماسكه وقوته، النتيجة الثالثة ضرب هيبة الدولة من خلال تتابع الأعمال الجريئة في التعبير عن الرفض والاستنكار، والتي تمثلت في المظاهرات وإرسال البرقيات، ومن الطريف أن مكاتب البرقيات تحولت إلى مراكز تجمعات ضخمة واضطر موظفو "البرقيات" لإعداد صيغ جاهزة للتعجيل بعملية الإرسال، والنتيجة الأخيرة هي إجبار الدولة من خلال الضغط على إعادة التأكيد على المنع، والمهم هنا ليس تأكيد المنع نفسه، ولكن إذعان الدولة للضغط وإصدارها بيانا من وزارة الداخلية لتأكيد ذلك، وكانت هذه تجربة فهم منها أن الضغط الشعبي يجبر الدولة على الإذعان لمطلب شعبي.

التكتيك يتغير

لقد كانت تلك النتائج درسا قويا لأولئك الذين سعوا في المشروع فقرروا بعدها التوقف عن استعمال الأساليب "الانفجارية"، وخاصة عند التعامل مع القضايا الاجتماعية، ومنذ ذلك الحين تغيرت السياسة، وتنازل هؤلاء عن الهدف الفرعي الذي هو قيادة المرأة للسيارة، وركزوا على الهدف الرئيسي وهو مسخ الفرد المسلم، وسعوا من خلال برامج التغريب والإفساد الخلقي إلى محاولة تحقيق أهدافهم.

وتم الاستغناء عن أسلوب التمرد على المجتمع والثورة على الأخلاق، واستعيض عنه بالاستفادة من طبيعة تركيبة الدولة والمجتمع التي تتمتع فيها الأسرة الحاكمة بالنفوذ والصلاحية والحصانة المطلقة، وتم استثمار هذا النفوذ في نشر الفساد الخلقي كجسر فعال لمشروع التغريب هذا، ويبدو أن هذا الأسلوب البطيء الهادئ فعال حقا، خاصة حينما واكبته حرب شعواء ضد جميع أشكال الدعوة والإصلاح، ولو كان هذا الأسلوب هو الوحيد لكان الزمن في صالح أصحاب هذا المشروع فعلا، لكن الحقيقة أنه بقدر ما يظن أولئك أنهم يستثمرون الزمن بالتخطيط والصبر، فإن أهل الإصلاح استثمروه كذلك بمشاريعهم، وإذا كان الفريق الأول يملك الإعلام وقوة السلطة والمال، فإن الفريق الثاني يملك قلوب الناس، ويتسلح بالدين، ويعتمد على الفطرة السليمة وعلى حصيلة السنين التي هي نتيجة هذا الصراع المتواصل .

لقد دامت تلك الضجة في رد الفعل قرابة الشهرين، وتركت بعدها آثارا مهمة على المستوى الاجتماعي والسياسي، ومن الضرورة بمكان إعادة التأكيد على أن القضية لم تكن مجرد مطالبة بقيادة المرأة للسيارة، فتلك القضية ليست أشد خطورة بحال من الأحوال من حرب الله ورسوله بالربا المستعر في البلاد، وبالتأكيد ليست أشد خطورة من القوانين الكفرية التي انتشرت في أنظمة وأجهزة الدولة، بل إن الذين رأوا منع قيادة المرأة للسيارة شرعا قالوا إن التحريم ليس لذات العمل وإنما هو لما يفضي إليه، ولذلك فالتحريم كما رأوه هو من باب درء المفاسد، وكان يمكن للمطالبين برفع المنع أن يجادلوا في الأمر بنقاش شرعي منضبط مدعوم بالدليل، كما هي عادة علماء المسلمين وفقهائهم عبر التاريخ ولكن مرادهم شيء آخر تماما.

كيف واجه الإسلاميون الصخب الإعلامي الأمريكي والسعودي المرافق لحرب الخليج

تحدثنا في الصفحات الماضية عن التفاعلات الاجتماعية التي حدثت استجابة للتطورات الكبرى التي شهدتها المنطقة، وأشرنا بشكل تفصيلي إلى تداعيات فتوى العلماء بشرعية نزول القوات وآثار مظاهرة قيادة المرأة للسيارة، ونتحدث هنا عن ظروف الحرب نفسها والتفاعلات النفسية والاجتماعية التي حصلت قبل وخلال وبعد المعركة الجوية والبرية، وماهية النقلة التي ساهمت تلك الحرب في تحقيقها.

معركة إعلامية

يرى كثير من المراقبين أن معركة ضرب العراق كانت معركة إعلامية سياسية قبل أن تكون عسكرية، إذ سعى الأمريكان من خلال آلتهم الإعلامية الضخمة والخبرة الهائلة التي يمتلكونها في مجال الحرب الإعلامية، وعبر الاستعانة بكل الإدارات ذات العلاقة كالمخابرات ومراكز البحوث غيرها، سعوا إلى تهيئة الجو نفسيا واجتماعيا لتحقيق ضربة قاصمة للجيش العراقي، وبالفعل فقد استعد الناس نفسيا لتلك الضربة، وأصبح الكثير منهم ينتظر بتلهف إنتهاء المهلة التي حددها الأمريكان لانسحاب العراق من الكويت، حتى يروا كيف تكون الضربة.

وتشكلت نفسيات الناس بطريقة جعلت معظمهم يتطلعون إلى لحظة الضربة انتقاما من العراق الذي فعل الأفاعيل في الكويت كما صورته أجهزة الإعلام، من جهة أخرى ضخمت أجهزة الإعلام قدرات الجيش العراقي، والقت في روع الناس أن هذه القوة الجبارة لا يستطيع مواجهتها وهزيمتها إلا الأمريكان، وتحدث الناس كثيرا عن المليون جندي وعن تطور العراق في الحرب الإلكترونية والجرثومية، واهتم الناس بشكل خاص بخطر الغازات السامة، وأصبح خطر تلك الغازات ماثلا أمام الأعين، ولم تتوقف وسائل الإعلام عن عرض وإعادة عرض آثار الغازات السامة على الأكراد، وأن الجزيرة ستتعرض قريبا لمثل ما تعرض له الأكراد.

ونجحت وسائل الإعلام بشكل خاص في أشغال عامة الناس عن السؤال الأهم، وهو كيف صنع العراق هذه القوة الجبارة كما صورها الإعلام، في حين أن صرفه على الجيش لا يجاوز خمس صرف آل سعود المعلن على تسليح الجيش السعودي؟، أعقل جواب يرد به علينا، ونحن نلح على هذا التساؤل أننا أبناء ساعتنا، وأن ما حصل قد حصل، ونحن الآن أمام الكارثة!، ولابد أن نقبل باستلام الأمريكان لهذه المهمة التي لا يتقنها إلا هم.

نجاح سياسي

في موازاة هذا النجاح الإعلامي، كان هناك نجاح سياسي مرافق, حيث نجح الأمريكان في استثمار الضعف السياسي الروسي، وبالتالي عزل العراق سياسيا، وصناعة ما يسمى بالإجماع العالمي والرأي العام الدولي وغيرها من المصطلحات التي أنست الناس كل قضايا الظلم والقهر في العالم وفي مقدمتها قضية فلسطين، وأبقت قضية واحدة منتصبة أمام الأذهان، احتلال العراق للكويت، وقد بلغ الحال ببعض سكان الجزيرة والخليج آنئذ أن يعلنوا استعدادهم لإدخال الكيان اليهودي في الحلف ضد العراق، وردد كثير من الجهلة الشرط الأمريكي بانسحاب العراق برجاله وبدون أسلحته بعنفوان ونشوة، وأضفوا على ذلك الشرط اصطلاح الإرادة الدولية، وغضوا الطرف في نفس الوقت عن اعتراف الإرادة الدولية بالكيان الصهيوني، واستخدام الأمريكان حق الفيتو ضد مجرد شجب ممارسات اليهود ضد الفلسطينيين، وباختصار فأن الحملة السياسية والإعلامية الأمريكية لعبت بعقول ونفوس الجماهير في الجزيرة والخليج وهيأتها لتمجيد أي عمل يقوم به الأمريكان ضد العراق، واعتبار ما تقرره أمريكا هو الخيار الأصلح.

الضعيف يقلّد

إلى جانب النجاح الأمريكي إعلاميا وسياسيا في التأثير على عقليات الناس كانت هناك محاولة النظام السعودي نفسه للتضليل واستغفال الجماهير، فقد حاول النظام إظهار ما يسمى بالقوات المشتركة، وهي القوات العربية والمسلمة بمظهر قوى حقيقية موازية ومكافئة للقوة الأمريكية، وحاول النظام كذلك إظهار خالد بن سلطان الذي عين قائدا لتلك القوات ''كزعيم عظيم''، وحاول النظام في آخر أيام الاستعداد للحرب إظهار درجة من الجدية والاهتمام بموضوع الحرب، لكن الجمهور كان مدركا أن الأمر والنهي بيد الأمريكان وأن المعركة حقيقة هي بين أمريكا والعراق، وأن المحاولات السعودية الإضافية لا تعدو أن تكون وسائل تجميلية، ولذلك لم تحقق تلك المحاولات نجاحا يذكر.

لم يدرك النظام ذلك الفشل، وسعى لأمر أكثر غرابة محاولا تقليد الأمريكان في الحشد الإعلامي والسياسي، وشط النظام شططا كبيرا في هذا السياق حين حاول تصوير الحرب المقبلة بمظهر ''الجهاد المقدس''، وتولت تلك المهمة جامعة الإمام محمّد بن سعود التي نظمت مؤتمرا يحمل هذا الاسم، وحضر عدد من العلماء الرسميين وبعض المخدوعين من داخل وخارج المملكة للمشاركة في المؤتمر الذي حظي بتغطية إعلامية ضخمة وموسعة، ولكن كانت النتيجة فشلا ذريعا، ولم ينفع رفع الشيخ ابن باز وغيره فوق منصة المؤتمر، ولا إخراج النشرات والكتيبات، وفرّق الناس بشكل واضح بين مبدأ القول بضرب الظالمين بالظالمين، وبين اعتبار معركة يقودها الأمريكان جهادا! وإن كان فعلا قد تحقق نجاح المشروع الأمريكي الإعلامي بشأن المعركة فقد فشل المشروع السعودي الموازي فشلا واضحا.

الضربة

جاء السابع عشر من يناير 1990والناس يترقبون الحرب وينتظرون الضربة، وما أن انتصفت ليلة الثامن عشر من الشهر ذاته حتى تحولت أنظار العالم كله إلى الخليج، وتسابقت الإذاعات ومحطات التلفاز في نشر تفاصيل الحرب: صواريخ كروز، طائرات إف 15، إف 16، طائرات الشبح، ودخلت وسائل الإعلام الأمريكية للمنطقة وقامت القناة الثانية في التلفاز السعودي بعرض CNN حية، وتفنن الأمريكان في إظهار الأهداف العراقية وهي تُضرب كما لو كانت في لعبة "الأتاري"، وبدأت حرب الصواريخ وانطلق "الباتريوت" ليحطم "سكود" في الجو وكأنه عمل السحرة، وامتلأت سماء الخليج بآلاف الطائرات، وألقيت على العراق أطنان هائلة من القذائف الضخمة، وشلّ الأمريكان الطيران العراقي من الضربة الأولى، وقضوا على كل وسائل دفاعه الجوية، وحطموا عددا كبيرا من منصات الصواريخ خلال وقت قصير، وماذا بعد؟، الأمريكان "الحضاريون"

لم يضربوا إلا الأهداف العسكرية بطريقتهم التي تسمى بالضرب "الجراحي"، أي ضرب الأهداف فقط دون ما حولها بكل دقة وقوة تهديف، حقا لقد كانت فتنة، والشواهد للعامة من الناس تقول بكل وضوح أن قرار الاحتماء بالأمريكان كان قمة الصواب والحكمة!!، ألا تراهم كيف قضوا على قوة العراق بكل سهولة، ألا تراهم كيف يرأفون بالمدنيين، ويتجنبون الأهداف المدنية، وشاشات التلفاز تؤكد كل ذلك، بل لقد صور المصورون صاروخ "الباتريوت" وهو يفجر صاروخ "سكود"، في منظر أخاذ فاتن لا يصمد له إلا من لديه ثوابت خارجة عن التأثر بالإعلام وشاشات التلفاز.

واستمر الحال كذلك وعظمة أمريكا تزداد في أذهان الناس، ثم حلت المعركة البرية، وانهار الجيش العراقي في لحظات، وقدم تنازلات المهزوم، ومرة أخرى نجح الإعلام في تصوير الأمريكان كمنقذين للكويت بالوسائل الحضارية والإنسانية، وكان منظر الجندي العراقي وهو يقبل قدم الأمريكي مستسلما له مؤلما حقا، لا يتمنى المرء أن يكون قد رآه أو سمع به.

فتنة

خلال الحرب تحدث الناس كثيرا عن صواريخ صدام، وضخمت وسائل الإعلام خطورة تلك الصواريخ، وفي نفس الوقت طبلت لقدرات "باتريوت"، وكان الحديث عن الصواريخ والغازات السامة طاغيا على المجالس، وسمع الناس صفارات الإنذار التي لم يتعودوا سماعها من قبل، وشعر شعب الجزيرة بأنهم ليسوا طرفا في تلك الحرب، ولذا فقد انتقل كثير منهم إلى خارج المدن خوفا من الغازات السامة، ورغم تفوق الأمريكان فقد خيم الرعب على بعض القلوب، أما النظام وطوال مراحل الحرب، فإنه لم يتوقف عن استمراره في وصف المعركة بالجهاد، ووصل الحال ببعض البسطاء للحديث عن رائحة المسك في شهداء معركة الخفجي بوصفها دليلا قاطعا على أن الحرب جهاد مشروع!!.

تنحّ ّ ُ ّ عن العاصفة

أمام تلك الحملة الإعلامية والسياسية الضخمة وتشكل نفسيات الناس وعقولهم طبقا لتلك الحملة، وسيادة مظاهر المعركة والقتال وانخداع الناس بأن دور الأمريكان هو مجرد طرد العراق من الكويت، أمام كل ذلك كان لابد لمفكري الصحوة وقيادييها أن يطأطأوا رؤوسهم للعاصفة الفكرية العاتية ويتنحوا قليلا عن موجة الحرب النفسية، وكان لا مناص من تخفيف الظهور الجماهيري وتأجيل النظر في القضايا السياسية.

من جهة أخرى لم يرغب قياديو الصحوة ومفكروها بالظهور بمظهر المفرّق للكلمة المخلخل للجبهة الداخلية، حتى لا يستغله خصومهم في تشويه صورتهم، ولم يكن مقبولا على كل حال والناس في أجواء حرب ومواجهة مع "المعتدي" أن تثار قضايا داخلية حساسة، وأحسب أن هذا الهدوء المؤقت كان ضروريا خاصة أنه لم يكن هدوءا مطلقا، فقد دلف الدعاة والمربون إلى استثمار تلك الفترة في التربية الروحية والسلوكية والفكرية العامة والتركيز على جوانب الإصلاح الفردي بشكل أعمق.

وضعت الحرب أوزارها وانهار الجيش العراقي تحت مطارق الأمريكان، واستسلم النظام العراقي بذلة أمام العنجهية الأمريكية، ونجح الإعلام في تصوير النصر الأمريكي كنجاح لحكمة حكام الجزيرة, وبدا جليا أن العراق طرد من الكويت دون دماء "سعودية" وعاد أهل الكويت لبلدهم "معززين مكرمين"، يشعرون بكل الفضل والامتنان لأمريكا العطوفة الحريصة على استقلال الشعوب وعدم السماح للقوي بأخذ حق الضعيف!!.

نجح الإعلام أيضا في تصوير الدور الأمريكي أجيرا أخذ أجرته وأدى مهمته ورحل، ولا أسف على المال إذا ما صرف على إنقاذ البلاد والعباد، وطفق كثير من الناس يردد أننا طردنا العراق بأموالنا، وأن الله سخر الأمريكان لنا، وانزج بعض المثقفين في هذا السياق، وكانت فعلا فتنة.

أمام هذا الإنجاز الإعلامي ظن النظام أن المعادلة الاجتماعية قد تغيرت لصالحه، واعتقد النظام والمدافعون عنه أن الجدل حول استقدام الأمريكان حسم على أرض الواقع، وأن الهدف من استدعاء الأمريكان تحقق بكل معانيه المطلوبة، وشحن في أذهان الناس أنه لو تردد الحكام ومالوا إلى رأي سفر الحوالي وبعض ''المتشددين'' لربما سقطت كل الجزيرة بيد الجيش العراقي، ولعانى شعب الجزيرة من جرائم العراقيين كما عانى الكويتيون، فالحمد لله الذي ألهم الحكام الصواب!!.

من جهة أخرى نجح الإعلام في إقناع الناس أن الأمريكان لم يأتوا ليبقوا، فهاهم بدأوا يرحلون فور انتهاء مهمتهم، وبذلك فإن دعاوى الغزو الفكري والأخلاقي والحضاري كلها إسقاطات تاريخية ونفسية يعاني منها بعض المعقدين من الشيوخ المتخلفين، ثم من هم هؤلاء المتخلفون؟ هم ليسوا إلا حفنة من الذين عجزوا عن مواكبة العصر، وقلبوا الدنيا رأسا على عقب لمجرد بضع نسوة قدن السيارات في شوارع الرياض!، وتثبيتا

لتلك الصورة حاول النظام من خلال جهاز الإعلام ومن خلال جهاز الإشاعات بالمباحث ربط التيار الإسلامي كله بتجاوزات أعضاء هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتي كان في بعضها شدة في غير محلها أو تصرف غير شرعي، وللحقيقة نقول أن شيئا من ذلك قد تحقق فعلا، ونجح النظام في تشويه صورة التيار الإسلامي في تلك الفترة.

نشوة ملكية

الأخطر من ذلك أن النظام ذهب بعيدا في نشوته بسحق العراق وحكمة القرار "الملكي"!، ومشاركات القوات المشتركة وبطولات الجيش السعودي في الخفجي ومهارة القائد "الفذ" خالد بن سلطان، واستغرق النظام بهذا الشعور إلى أن ظن أنه هو الذي هزم العراق، وانتصر هذا الانتصار "المذهل"، واستنتج النظام أن "نصره العسكري" هذا!، وما صاحبه من حملة إعلامية وسياسية عالمية طبلت له هو في الحقيقة نصر ساحق على المشاغبين من المشايخ والعلماء وبعض المتعالمين من الذين شككوا في حكمة قرار استدعاء القوات!!.

لقد أدت هذه الأجواء إلى اعتقاد النظام أن الشعب قد جدد ولاءه لآل سعود، وأن الشعب سيلفظ كل هؤلاء المشاغبين، ولذلك لم يمض شهر على انتهاء الحرب حتى بدأت كواليس الأسرة تتحدث عما ينبغي عمله للانتقام من سفر وسلمان وغيرهم من أصحاب الأصوات المرتفعة، واستقر الرأي في الأسرة الحاكمة على بداية حملة قمعية يتخلص بها النظام من كل هؤلاء المزعجين، فلماذا لم يمض هذا المشروع قدما؟ وكيف تعامل رموز الصحوة معه؟، هذا ما سنراه في المباحث القادمة إن شاء الله.

القصة الكاملة لخطاب المطالب

وضعت الحرب أوزارها وبدا كأن الناس مطمئنون، وأن الظروف التي اضطرت رموز الإصلاح للصمت قليلا أيام المعركة ذاتها قد زالت، انتهت المعركة في أواخر شتاء ذلك العام 1991 ميلادية 1411 هجرية، واستقبل الناس الربيع بشعور هو مزيج من البهجة بانقشاع الأزمة، والغضب من انكشاف النظام، والقلق من المستقبل وخاصة مستقبل قوات الأمريكان في الخليج، لقد كان هناك إجماع بين عقلاء المثقفين والعلماء في تلك الفترة أن المرحلة مرحلة محاسبة وأن التفريط في المحاسبة في ذلك الوقت بالذات ترك لواجب شرعي وتخل عن المسؤولية، لكن الأمة لم يكن لديها من قنوات التعبير ولا وسائل الإعلام ولا الطرق النظامية المسموح بها وما تعبر به عن رفضها لذلك الانكشاف المخجل في الأزمة والذي عكس واقعا خطرا لوضع النظام ووضع المجتمع.

لماذا الخطاب

كان لابد في ظل غياب هذه القنوات من إيجاد وسيلة فعالة لتحقيق ذلك الهدف، كان النظام يصر على أسلوب السادة والعبيد، كان النظام يريد من الناس أن يتركوا السياسة لأصحابها من أهل الدم الأزرق لأن "الشيوخ أبخص"، وإذا كان ولابد فلا يحق لهؤلاء العبيد أن يتجاوزوا مجرد كتابة برقية أو رسالة فردية خاصة توجه إلى أحد أبناء الأسرة "الشريفة" أو تبلغ من خلال الشيخ ابن باز، وهذا مع أنه يقبل على مضض وبامتعاض فإنه أقصى ما يمكن أن يقبل به آل سعود، والمشكلة أن ذلك التقليد لم يقتصر على كونه مطلبا لآل سعود تحقق من خلال الإرهاب والكبت بل تحول إلى عرف شعبي وعقيدة دينية في ظنهم مفادها أن الحاكم لا ينقد ولا ينصح ولا يوجه إلا سرا، وخلف جدران أربعة، وأن مجرد إخبار الشيخ ابن باز كاف للقيام بواجب إنكار المنكر، ولا يهم بعد ذلك هل أزيل المنكر أم لم يزل، ولذلك فلم تكن مهمة مشروع الصحوة مجرد إحراج الحاكم بإيجاد القناة المفروضة عليه، بل كان الهدف أعمق من ذلك، وهو كسر هذا العرف المخالف للشريعة، ومع ذلك فقد لُبس لباس الشريعة واستقر في أذهان الناس وضمائرهم، كان لابد من القضاء على تلك العلمانية المستترة و "المؤصلة" التي جعلت ما لقيصر لقيصر، وما لله لله، وهذا هو مقتضى عبارة "الشيوخ أبخص"، وكان لابد من نسف تلك العقيدة من أذهان الناس قبل فرضها على النظام.

مشروع التويجري

في بداية الأمر وحتى قبل نهاية الأزمة حاول أحد رموز الصحوة وهو الشيخ عبدالله التويجري تجاوز الجانب الأقل حرجا من هذا التقليد والعرف الخاطئ، فأعد رسالة على هيئة نصيحة شخصية، وطاف بها على مجموعة من العلماء وأساتذة الجامعات والقضاة والأعيان، واستطاع إقناع ما يربو على المئتين منهم بالتوقيع عليها وسلمها للحكام.

وهو بعمله هذا تجاوز الخط الأحمر في قصر الرسالة على شخص واحد، فجمع هذا العدد الكبير من التوقيعات، ولكنه لم يتجاوز الخط الآخر الأكثر خطورة، وهو نشر تلك الورقة باعتبار أن من حق الأمة معرفة الواقع، ومن حقها التحاور حول القضايا التي تهمها بشكل مفتوح من أجل إصلاح الأوضاع، ولقد شارك كثير ممن وقّع تلك الرسالة بمن فيهم كاتب هذه السطور من باب إقامة الحجة مع علم الجميع أن آل سعود سيجعلون مصير هذه الرسالة الحفظ ومصير الشيخ عبدالله التويجري التوجس والشك ومصير الموقعين وضعهم جميعا تحت عين المخابرات، وهذا ما حصل فعلا.

فيما عدا تجربة الشيخ عبدالله التويجري لم يكن واضحا لدى كثير من رموز الإصلاح ورواد التغيير الطريقة المثلى للعمل والخطوة المناسبة، بعضهم كان يرى المحاضرات العامة وسيلة، بينما كان البعض الآخر يرى توجيه وفود لمقابلة العلماء والحكام، وكان فريق ثالث يرى الاستمرار في الإكثار من الرسائل المغلقة والسرية، وكانت مشكلة تلك الوسائل أنها تجمع بين محدودية الهدف وترسيخ بعض الأوضاع القائمة من جهة أخرى، وحتى لو تسببت في إصلاح محدود، فلن تأتي بأي نقلة حضارية تطور آلية عمل المجتمع وتقربه إلى المجتمع الصحي الذي يعيش على هدى الإسلام.

مشروع مختلف

فكرت مجموعة قليلة من بينهم –كاتب هذه السطور– تفكيرا مختلفا، لقد بدا الأمر لتلك المجموعة أكثر صعوبة من ظاهره، وأن الحل لابد له من دراسة عميقة ولابد من تحليل المشكلة تحليلا دقيقا، ومعرفة الظروف المحلية قبل المضي قدما بأي حل، وتطلب الأمر لقاءات طويلة ربت على العشرين لقاءا، دارت كلها حول فلسفة الفكرة وكيفية تحقيق الهدف بأكبر نتيجة وبأقل خسائر، وبالطبع مع بقاء الطابع الإصلاحي للمشروع.

غير أن النقاش المستفيض والحوار الواسع أدى إلى نتيجة هامة وخطيرة مفادها أن المطلب ليس مجرد إصلاح الجيش أو إصلاح الاقتصاد أو إصلاح التعليم والصحة والخدمات بتفضل من الحاكم، بل إن المطلب هو إصلاح شامل للدولة عموما وتعديل شكل العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وأولى خطوات ذلك هي بعث روح المسؤولية والإيجابية في المجتمع كله وتربية الأمة على ضرورة المشاركة المباشرة في تسيير شؤون الدولة وتحمل المسؤولية التاريخية في إنقاذ البلد من الكوارث القادمة، ومما بدا لهذه المجموعة أن من المطالب الهامة إثبات دور العلماء والرموز الشرعية في قيادة المجتمع وتوجيهه واستعادة هذه الراية بعد أن نجح المشروع الإعلامي في تحويل مفهوم الرموز الدينية إلى رجال دين مختصين بشؤون الطهارة وتزكية النفس، وإذا تجاوزوا ذلك فإلى تأمين قدسية الحاكم وطاعته المطلقة، بل كان لابد من إثبات أن العلماء المصلحين والرموز الدينية هي التي تشفق على الشعب وتضحي من أجل حصول الأمة على حقوقها.

مطلب آخر مهم كذلك كان تصحيح الصورة المشوهة لتلك الرموز في أذهان الناس من أنهم قصيرو النظر محدودو الفكر لا يهتمون إلا بمطاردة النساء والشباب في الأسواق ينهالون عليهم بالعصي والشتائم، هذه الصورة التي صاحبت اسم هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان لابد من تغييرها تماما وإثبات أن مطالب الإسلاميين عالية، وآراؤهم سامية، فهم يطالبون بإصلاح السياسة وإصلاح الاقتصاد وإصلاح القضاء وإصلاح الإعلام.

وكان من الضرورة بمكان إظهار الإسلاميين بمظهر النماذج الراقية الطاهرة التي تستحق أن تكون قدوة للمجتمع.

وظهر لتلك المجموعة كذلك ضرورة إثبات اتفاق الأمة على مطلب الإصلاح، اتفاقا أجمع عليه الشمال والجنوب، الشرق والغرب، الأستاذ الجامعي وطالب العلم، الجيل القديم والجيل الجديد، ابن المدينة وابن القرية وابن البادية، المحسوبون على التيار المتشدد والمحسوبون على التيار المتساهل، وكان لابد لمن يمثل كل هذه التيارات والمناطق والأجناس أن يكون عدده كبيرا.

غير أن كثرة العدد يجب أن لا تؤثر في النوعية فلابد من إثبات أن الذين تصدوا للإصلاح هم وجوه الأمة وقادتها وأعيانها، وأن تلك الأسماء ليست مجرد قائمة طويلة، وأنه ليس فيهم من يقدح في دينه وخلقه.

فكرة الخطاب

بحثت المجموعة عن وسيلة فعالة تناسب الظروف والمعطيات وتحقق الأهداف المذكورة، واستعرضت كل تجارب حركات التغيير من المحاضرة إلى الشريط إلى التجمعات والمسيرات، واستقر الرأي في النهاية على الخطاب المكتوب الموقع من قبل شريحة كبيرة من وجوه الصحوة ورموز الإصلاح.
ثم بدا النقاش حول تفاصيل الخطاب وأسلوب كتابته وإعداده وجمع التوقيعات وكيفية تسليمه لمن يسلم إليه, وكان لابد لهذه التفاصيل أن تحقق الأهداف المذكورة، ولذلك اتفق الجميع على أن يكون الخطاب قصيرا ومركزا وشاملا وأن لا يتجاوز صفحة واحدة، واتفقوا على أن تكون لغته مفهومة للعامي وفي نفس الوقت لغة شرعية جزلة واتفقوا على أن تكون في صفحة الخطاب مساحة كافية لكبار الموقعين، وبعد هذا الاتفاق كان هناك خلاف حول السبيل الأمثل لإيصال فحوى الخطاب للناس لأن فلسفة المشروع تقوم على أن الخطاب موجه إلى الأمة أكثر مما هو موجه إلى الحكام، فبعضهم رأى تسليم الخطاب والتريث والتصرف تبعا لموقف النظام، والآخر رأى حمل الخطاب في مسيرة حاشدة وتسليمه للملك بشكل معلن، وآخر رأى عدم تسليمه بل قراءته في المساجد بعد صلاة الجمعة وربما جمع الناس من أجله، وأخيرا ترجحت فكرة التوزيع المباشر وإن لم تحظ بنفس إجماع الأفكار الأخرى، ولذا أضمر المتحمسون لها مشروعهم، وتحمل كاتب هذه السطور مسؤولية ذلك بنفسه.

الصياغة

كانت العقبة الأولى هي كيفية إخراج العصارة من نصيحة شاملة ومطالب متكاملة في صفحة واحدة، بل في ثلثي صفحة، وهذه لاشك مهمة صعبة فالاختصار دائما أصعب من الإسهاب، ثم إن هذا الاختصار يجب أن يحقق الأهداف الأخرى التي هي سهولة العبارة والقوة والشرعية والشمول، ولذا فقد استغرقت الصياغة زمنا ليس بالهين ولقاءات كثيرة حتى ظهر الخطاب بصورته الأخيرة.
كانت السرية في التنفيذ هي التحدي الثاني لأن أي تسرب للمشروع معناه إجهاض له، والسرية هنا لم تكن إخفاءا لخبر الخطاب وأهدافه عن النظام بل كانت إخفاءا له حتى عن كثير من رموز الصحوة الذين قد لا يفهمون أبعاد المشروع، وقد يتسببون في إجهاضه دون علم منهم، بل ربما كانت قدرتهم على الإجهاض أكبر من قدرة الدولة، وبحمد الله فقد تحققت تلك السرية بشكل جيد.

الخطة

أعد الخطاب صياغة قبيل رمضان من نفس العام 1411هـ، وبدأ النقاش عن كيفية تسيير عملية التوقيع، وذلك لأن طلب التوقيع من الناس هو كشف للمشروع، ومن جهة أخرى فقد ترجح لدى المجموعة ضرورة وجود موقعين أكبر بكثير من الأسماء الموجودة في الصفحة الرئسية كدعم وتعضيد لهم، وهذه العملية فيها مخاطرة كبيرة، وهنا ظهرت لنا حيلة، وهي إجراء عملية التوقيع على مرحلتين، الأولى للصفحة الرئيسية فقط يحرص فيها على السرية التامة، ويجمع خلالها عدد يملأ ثلث الصفحة الأسفل، والذي وصل حقيقة إلى اثنين وخمسين اسما، والمرحلة الثانية هي السريعة وتجمع فيها التوقيعات على التوازي حيث تصور الصفحة الأولى بتوقيعات، ويمكن لكل من عرض عليه الخطاب للتوقيع الاطلاع عليه، ومعنى التوازي هو قيام أكثر من شخص في أكثر من مدينة أو مؤسسة بجمع التوقيعات على أوراق مختلفة، ولكن لنفس الخطاب وهذه الأسماء حتى لو لم تظهر في الصفحة الأولى فستشكل دعما معنويا وحماية اجتماعية للمجموعة التي وقعت على الصفحة الأولى.
وفيما نحن نتناقش حول طريقة التوقيعات بدت لنا فكرة هامة، وهي الحصول على دعم خاص من كبار العلماء الرسميين وفي مقدمتهم الشيخ عبدالعزيز بن باز والشيخ محمد بن عثيمين، واختلفنا مرة أخرى حول الأمثل هل هو وضع تواقيعهم إلى جانب التوقيعات الأخرى، أم الأمثل الحصول على تزكية مستقلة للخطاب منهما، وترجح الرأي الثاني على أن ينفذ بعد اجتماع عدد جيد من أسماء الموقعين.
بعد استكمال الاستعدادات ووضوح الخطة وضع جدول زمني، وزع فيه الوقت المناسب للمرحلة الأولى والمرحلة الثانية من التوقيع، وتعين أن تكون لحظة التسليم للملك في شوال من نفس العام، وأما النشر والتوزيع فقد تم ترتيب جدول إضافي للنشر في الداخل ومن ثم في الخارج.
كانت عملية جمع التوقيعات والحصول على تزكية الشيخين عبدالعزيز بن باز ومحمد ابن عثمين، ومن ثم تفاصيل تسليم الخطاب أعمالا درامية طريفة، نراها في الفصل القادم.

كيف سُلم خطاب المطالب وكيف ترددت أصداؤه

تحدثنا سابقا عن الظروف التي مهدت لمشروع خطاب المطالب، وعما بذل من جهد لإعداده، وتحدثنا كذلك عن فلسفة الخطاب وعن أهدافه, وانتهينا في سردنا التاريخي إلي بداية مرحلة جمع التوقيعات، وسوف نتحدث في هذا المبحث عن الكيفية التي تم بها جمع التوقيعات وعن تسليم الخطاب وانتشاره، وعما تمخض عنه من آثار اجتماعية وسياسية، وما أفرزه من ردود أفعال شعبية ورسمية.

التوقيع

كان أول الموقعين على الخطاب بعد الانتهاء من إعداده هو الشيخ العلامة حمود بن عبدالله التويجري رحمه الله الذي وضع ختمه الشهير في رأس الخطاب، ثم وقع بعده الشيخ عبدالله بن جبرين والشيخ عبدالمحسن العبيكان وعدد من مشايخ الرياض، ثم سافر أحد الإخوة بالخطاب إلى مكة حيث وقع عليه الشيخ سفر الحوالي والشيخ مُحَمَّد بن سعيد القحطاني، وبعد ذلك إلى القصيم حيث وقع عليه الشيخ سلمان العودة والشيخ عبدالله الجلالي ومشايخ القصيم، ثم إلى المنطقة الشرقية حيث وقع عليه الشيخ مُحَمَّد الشيحة وعدد من القضاة والعلماء في المنطقة الشرقية، ثم إلى المدينة المنورة وإلى المنطقة الجنوبية حيث وقع عليه العلماء والقضاة هناك، بعد ذلك عاد الخطاب إلى الرياض حيث استكمل التوقيع في الصفحة الأولى من قبل عدد من العلماء وأساتذة الجامعات والشخصيات الإسلامية الشهيرة.

بعد ذلك صورت عدة نسخ من الصفحة الممتلئة بالتوقيعات، وأرفقت مع كل نسخة صفحة من الخطاب خالية من التوقيعات، ووزعت تلك النسخ بالتوازي على مناطق المملكة مرة أخرى وجمعت على الصفحة الثانية المرفقة توقيعات أعداد من طلبة العلم وأساتذة الجامعات والقضاة، وبلغ المجموع الكلي للتوقيعات حوالي أربعمائة توقيع.

بعد استكمال التوقيعات نجحت المجموعة المشرفة على الخطاب في الحصول على تزكية تفصيلية من الشيخ ابن باز للخطاب في مقدار صفحة ونصف، يؤيد فيها الشيخ المطالب وينصح "ولاة الأمر" بإحالتها إلى هيئة كبار العلماء لدراستها وتحديد طريقة تنفيذها، فشجع ذلك الشيخ ابن عثيمين على كتابة خطاب تأييدي حذر، ذكر فيه أنه يؤكد ما قاله الشيخ ابن باز.

الفكرة محترقة!!

وفيما نحن مشغولون بجمع التوقيعات نشرت مجلة الجزيرة العربية التي كانت تصدر في لندن نص خطاب موجه للملك فيه بعض الشبه من الصيغة الواردة في خطابنا يحمل توقيعات حوالي أربعين شخصا من المثقفين والكتاب وعدد من الشخصيات الرسمية السابقة، فاتصل بي أحد الإخوة وقال: ماذا نعمل لقد حرقت الفكرة، قلت: لا تقلق! الفكرة لم تحرق، فمشروع خطابنا مختلف تماما سواء من حيث صياغة نصه أو من حيث نوعية الموقعين وعددهم، أو من حيث أسلوب تقديمه للجمهور، وكنت أضمر في نفسي خطة النشر الداخلية التي رتب لها ترتيبا جيدا، وكنت أعلم أن تداول الخطاب بين أيدي الناس في الداخل سيكون أثره أعظم بكثير من خروج الخطاب في مطبوعة تصدر في لندن لا يعلم الناس في

الداخل عنها شيئا، هذا مع قناعتنا بضرورة النشر في الخارج لا لمجرد وروده في مطبوعة من المطبوعات، بل الغاية من ذلك أن يكون لنشره في الخارج أثر على الساحة المحلية، ولم نجد أنسب لذلك من السعي لإيراد خبر صدور الخطاب في إذاعة لندن نظرا لما لهذه الإذاعة من شعبية في المنطقة العربية بشكل عام، هذا بالإضافة إلى أن إيراد الخبر في إذاعة لندن يحقق أكثر من مجرد هدف النشر لما يتركه من انطباع لدى الناس من أن الأمر ينطوي على أهمية سياسية عالمية، فليس الحاكم وحده القادر على أن يصنع حدثا تتحدث عنه وسائل الإعلام العالمية، كما أن نشر الخبر يوفر نوعا من الحماية للقائمين على المشروع، لأن البطش بهم لن يكون سهلا.

التسليم

صار المشروع جاهزا في منتصف شوال من نفس العام 1411هـ، وكان لابد من التعجيل بتسليم الخطاب قبل أن ينكشف أمره ويجهض مشروعه، وتقرر أن يسلم الخطاب فورا قبل نهاية شوال وأن ترسل النسخة الأصلية للملك، وترسل نسخ من الخطاب للشيخ ابن باز بصفته المفتي والشيخ صالح اللحيدان بصفته رئيس الهيئة الدائمة للقضاء, وللأمراء عبدالله وسلطان وسلمان ونايف، أعدت النسخ بالتوقيعات الأربعمائة، وألحقت بكل واحدة منها نسخة من رسالة توجيهية في مقدمتها تعريف بالمحتوى، وكانت المشكلة التي اعترضتنا هي من يسلم الخطاب للملك وكيف؟؟

بعد المداولات ترجحت فكرة التسليم للديوان الملكي وأخذ إيصال بذلك, وعدم انتظار فرصة مقابلة الملك شخصيا لأن تلك الفرصة قد لا تسنح إطلاقا، شكل وفد لهذا الغرض من كل من الشيخ عبدالمحسن العبيكان والشيخ عبدالله التويجري والشيخ عبدالله بن جبرين والشيخ سعيد بن زعير على أن يسافر الوفد إلى جدة لتسليم الخطاب في الديوان، وفي صباح اليوم المحدد في حوالي العشرين من شوال حضر الجميع للمطار فيما عدا الشيخ عبدالله بن جبرين الذي تأخر عليه السائق، ففاتته الرحلة فلم تكتب له مشاركة وكتب له الأجر إن شاء الله، وصل المسافرون إلى جدة وسلموا الخطاب فعلا لمدير الديوان محمد النويصر، وسلمت بعد ذلك النسخ الأخرى للأشخاص المحددين، وبذلك انتهت المرحلة الأهم. مرحلة إيصال الخطاب إلى الملك. من مشروع هذه الوثيقة التاريخية التي عرفت بـ "وثيقة شوال".

استراحة

بعد التسليم تنفسنا الصعداء، وفضلنا الهدوء لعدة أيام، ثم استأنفنا النقاش حول الخطوة التالية، خطوة التوزيع والنشر في الداخل والخارج، في تلك الأثناء كان كاتب هذه السطور قد اتفق مع مجموعات أنيطت بها مهمة التوزيع في كافة أنحاء المملكة على أن تبدأ التوزيع بعد أسبوعين من تسلم الملك للخطاب في وقت واحد، وكنا ننتظر انقضاء الأسبوعين بفارغ الصبر حتى نشرع في التوزيع، وفي نفس الوقت كنا ننتظر رد فعل الدولة على الخطاب وعلى ذلك العدد الكبير من التوقيعات.

صدمة آل سعود

حين رأى الملك الخطاب أصيب بصدمة كبيرة، لم يصدم بصيغة الخطاب ولا بمحتواه ولكن صدم لأن التوقيعات التي عليه جمعت من حفر الباطن إلى جيزان ومن الدمام إلى جدة ومن المدينة إلى الإحساء دون علم المباحث ولا المخابرات، أين كان نايف؟ وماذا كانت تفعل وزارته؟ استدعى الملك نايف فورا ووبخه توبيخا شديدا، فماذا كان رد فعل نايف؟ لقد استدعى بدوره طه الخصيفان رئيس المباحث العامة ووبخه بشدة دل عليها ما أسر به الخصيفان لأحد رجال الصحوة من أن وقع خطاب المطالب على آل سعود كان أشد من وقع اجتياح العراق للكويت.

أما سلمان بن عبدالعزيز فاستشاط غضبا، ورفع الهاتف يتحدث لأحد إخوانه مستغربا كيف نجح معدو الخطاب في تحريك الشيخ الكبير حمود التويجري وكيف نجحوا في استصدار تزكية من ابن باز وكيف نجحوا في جمع ذلك العدد الكبير من التوقيعات.

التوزيع

بعد ذلك استعاد آل سعود توازنهم قليلا، وكلفوا سلطان بمقابلة عدد من الشخصيات الواردة أسماؤها في الصفحة الأولى اعتقادا منهم أنهم وراء مشروع الخطاب، اتصل سلطان بالدكتور أحمد التويجري وبالدكتور توفيق القصير وبالشيخ عبدالمحسن العبيكان وبالشيخ سعيد بن زعير وطلبهم

للمقابلة، وبينما كانوا على وشك مقابلته بناء على موعد تم ترتيبه، اتصل مدير مكتب سلطان يخبرهم بإلغاء المقابلة، ذهب الظن ابتداء إلى أن سبب الإلغاء هو الحاجة إلى جمع مزيد من المعلومات، ولكن تبين فيما بعد أن السبب كان ورود تقارير من جميع أنحاء المملكة عن نشر الخطاب على نطاق واسع، مما وجه صفعة أخرى لآل سعود الذين كانوا لا يزالون في دوار من جراء الصفعة الأولى.

أصدر آل سعود بعد نشر الخطاب قرارا بمنع كل الذين وقعوا على الخطاب من السفر إلى الخارج، كان القرار غريبا، فلماذا يحظر السفر على الموقعين؟، تبين بعد التحليل والتدقيق أن عبقرية آل سعود توصلت إلى هذا القرار كوسيلة لمنع تسريب الخطاب ومن ثم الحيلولة دون نشره في الخارج، وفاتهم أن العالم أصبح قرية كونية لا مجال فيه لحجز المعلومات، وفاتهم أن الذي أتقن إعداد الخطاب وأتقن جمع التوقيعات وأتقن عملية النشر في الداخل ما كان ليصعب عليه نشره في الخارج، والحقيقة التي لم يعرفوها أن الخطاب كان قد سرب إلى الخارج قبل أن ينشر في الداخل، وجاء منع الموقعين من السفر ليكون دليلا آخر على الحماقة التي أضحت سمة من سمات النظام.

كان النشر في الداخل كثيفا فعلا، وتفنن الناس في طريقة النشر، فمنهم من وزعه يدويا، ومنهم من ألقى به داخل السيارات، ومنهم من أدخله إلى البيوت من تحت الأبواب ومنهم من وزعه في فتحات صناديق البريد، أو شبابيك البريد الداخلي للإدارات الحكومية، ومنهم من وزعه بالبريد الداخلي نفسه، إذ وصل الخطاب إلى عدد كبير من الناس عبر عناوينهم البريدية، وكان التوزيع في البداية عملا مشوبا بالخوف والتردد، ثم شجع توفره في أيادي الناس بشكل مكثف على توزيعه بشكل شبه علني، وصار من المشاهد الطبيعية أن تدخل أحد محلات البقالة أو القرطاسية وترى نسخ الخطاب مصفوفة أمامك لتستلم منها نسخة، وشوهد البعض يطوف بسياراته يوزع الخطاب علانية على الناس.

في بداية الأمر كلف رجال المباحث بتتبع الموزعين، وقد قبض على مجموعة منهم، لكن السلطات سرعان ما أدركت أن الخرق قد اتسع على الراقع.

في إذاعة لندن

وأخيرا، صدعت إذاعة لندن بالخبر، وتتابعت الإذاعات والصحف العالمية في التعليق على الحدث، واهتمت مراكز البحوث في الغرب والشرق بتحليل تلك الخطوة، وكان من أظرف التعليقات ما جاء في صحيفة الحزب الشيوعي الصيني في بكين من: أن هذا الخطاب كسر مقولة ماركس ''الدين أفيون الشعوب''، فها هو الدين محرك للشعوب وهاهم ''رجال الدين'' قد أصبحوا روادا للثورة الفكرية والنهضة الثقافية.

تحول الخطاب إلي قضية المجتمع الرئيسية، وصار حديث الناس صباح مساء، واعتبر الموقعون أبطالا وقيادات اجتماعية تستحق التقدير، لقد كان النشر من أنجح الوسائل لوضع الأمة والعلماء والشخصيات البارزة أمام الأمر الواقع، وكان زخم الخطاب وقوته باعثا للموقعين على الافتخار بوجود أسمائهم في تلك الوثيقة، حتى أن الذين ترددوا في التوقيع في أول الأمر رفعوا بعد ذلك رؤوسهم عاليا معتزين بمشاركتهم في المشروع.

محاولة متأخرة

خلال تلك الفترة حاول النظام إقناع كبار الموقعين بالتراجع وجمع سلمان بن عبدالعزيز قضاة الرياض وجادلهم، ثم حاول تخويفهم فلم يفلح، وحاول آخرون من الأسرة مع علماء آخرين فلم ينجحوا إلا مع شخصين أو ثلاثة من بين أربعمائة اسم، كتب المتراجعون اعتذارات سرية، ورفضوا الإعلان عن تراجعهم خجلا من مواجهة الجمهور.

الهيئة... أدركونا

لم يجد آل سعود حلا سوى اللجوء إلى المشيخة الرسمية ليخاطبوا من خلالها عامة الجمهور علهم يفندوا ما جاء في الخطاب، كلفت هيئة كبار العلماء بدراسة الموضوع وإصدار بيان بشأنه، وأوعز الملك وسلمان إلى صالح اللحيدان وعبدالعزيز بن صالح رحمه الله وهما من أعضاء الهيئة بعمل شيء ما لتقبيح الخطاب في أعين الناس، وتسرب خبر اجتماع الهيئة فتحرك الجمهور للتأثير عليها, وتوجهت الوفود الكبيرة لتوعية أعضاء الهيئة وتذكيرهم بالله وبالمسؤولية الشرعية الملقاة على كواهلهم، وكان عجبا أن يكون عامة الناس هم الناصحين والمذكرين للعلماء، مع أن الأصل أن يكون ذلك هو دور العلماء الذين يفترض فيهم التجرد وإنكار المنكر أيا كان مصدره وإقرار المعروف أيا كان فاعله.

كان تجاوب أعضاء الهيئة متفاوتا فبعضهم كان يبدي تعاطفا مع مشروع الخطاب، بينما أبدى البعض اعتراضا شديدا واحتج بحجج واهية ليست من الدين في شيء، قال أحدهم "ماذا أبقيتم للأسرة الحاكمة"، وقال آخر "النصيحة لا ينبغي أن تقدم إلا من العلماء"، وهو يقصد بذلك أعضاء الهيئة.

النشر حرام!!

اجتمعت الهيئة وتحرك لوبي اللحيدان وابن صالح، فلم يستطع إقناع الآخرين بتقبيح الخطاب نفسه، ولكن نجح في استصدار بيان ينتقد نشر الخطاب باعتبار أن الخطاب نصيحة والنصيحة لا تجوز إلا سرا، وقُرئ بيان الهيئة في الإذاعة والتلفاز ونشر في الجرائد الرسمية في أواخر ذي القعدة من نفس العام.

كان صدور بيان هيئة كبار العلماء أول اعتراف رسمي من قبل الدولة بوجود كيان مستقل قدم عملا فكريا موجها للنظام الذي أجبر على الرد عليه من خلال جهازه ''الشرعي''، إلا أن البيان كانت له آثار إيجابية على مشروع الخطاب بما أعطاه من زخم إعلامي، وبما تمخض عنه من تحويل فكرة ''المعارضة'' إلى حقيقة واعدة.

كان بيان الهيئة هو الحلقة الأخيرة من سلسلة ردود الأفعال التي رافقت نشر الخطاب، واستمرت موجة الحديث عن الخطاب والبيان ردحا من الزمن، وبطبيعة الحال لم يقدم آل سعود أي بادرة يثبتون بها أنهم مستعدون لقبول ما ورد في الخطاب من نقد واقتراح.

لقد حقق الخطاب ما أريد له أن يحقق من أهداف اجتماعية وحضارية ونفذ مشروعه بطريقة متقنة حتى قال أحد كبار المشايخ في وصف نجاحه: "كأني بهذا الخطاب يحمله ملك من الملائكة"، لقد سلم الخطاب قبل أن ينكشف أمره، ونشر في الداخل في الوقت المناسب وبالطريقة المناسبة، ونشر في الخارج عبر أفضل القنوات الإعلامية، وتحقق المطلوب من نشره من التوعية الجماعية لعامة الناس ولشباب الدعوة، وتحققت النقلة المتوقعة في تحويل اهتمام الشباب المتدين من القضايا الجانبية إلى القضايا الكبرى، وتحقق إقناع الأمة بأن الذي يتكلم باسمها ويطالب بحقوقها هم العلماء العاملون ومثقفوا الإسلاميين، وتبين من خلال الأسماء الواردة إجماع القيادات العلمية والثقافية على مطالب الخطاب.

درس من المشروع

وبالنسبة لنا، ولّد نجاح المشروع لدينا قناعة بأن المرء بإمكانه أن يصنع حدثا إن أراد، وأن بإمكانه أن يخاطب الأمة وينبه فكرها لو عزم على ذلك، لقد ولّد ذلك أيضا إحساسا بالإيجابية، وبأننا كأعضاء فاعلين في هذا المجتمع لدينا القدرة على تغيير الأحداث، وهذا بدوره أزال الشعور بالعجز والإمعية والقطيعية الذي سيطر على عقول وقلوب قطاع واسع من الإسلاميين في زماننا، ظنا منهم – مع الأسف الشديد – أن ذلك العجز هو قدرنا، لقد دفعنا هذا الشعور بالإيجابية والعطاء والانتاج للتصميم على مزيد من صناعة الأحداث سعيا لتغيير وجه المجتمع واتجاه التاريخ.

من النتائج الهامة للخطاب كذلك أنه كان عبارة عن تجربة حية للتعامل مع الواقع من خلال قضايا حساسة، والتعامل مع هذا الواقع وأطرافه المتعددة المتمثلة في الدولة والقيادات الاجتماعية والظروف المحلية والعالمية والشعب نفسه يعين على تعلم كثير من الحقائق الهامة من أجل المضي قدما في أي مشروع، ولقد تبين من هذا المشروع الذي يبدو سهلا وهو حقيقة مليء بالصعوبات وجود كثير من عوامل الضعف والقوة لدى التيار الإسلامي وتبين كذلك مدى استعداد القيادات للإيجابية والعطاء واستعداد الشعب للتعاطف مع قضايا الإصلاح، كانت هذه النتائج الحقيقية رصيدا غنيا يحتاجه المرء وهو ينتقل للمرحلة الثانية من مراحل العمل الجماهيري الاستراتيجي.

نص خطاب المطالب

خادم الحرمين الشريفين وفقه الله، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد، فقد تميزت هذه الدولة بإعلانها تبني الشريعة الإسلامية، وما زال العلماء وأهل النصح يسدون لولاتهم ما فرضه الله عليهم من النصيحة، وإننا في هذه الفترة العصيبة التي أدرك فيها الجميع الحاجة إلى التغيير نجد أن أوجب ما تتوجه إليه العزائم هو إصلاح ما نحن فيه مما جلب علينا هذه المحن، ومن أجل ذلك فإننا نطالب ولي الأمر بتدارك الأوضاع التي تحتاج إلى الإصلاح في النواحي التالية:

* إنشاء مجلس للشورى للبت في الشؤون الداخلية والخارجية يكون أعضاؤه من أهل الاختصاصات المتنوعة المشهود لهم بالاستقامة والإخلاص مع الاستقلال التام دون أي ضغط يؤثر على مسؤولية المجلس الفعلية .

* عرض وصياغة كل اللوائح والأنظمة السياسية والاقتصادية والإدارية وغيرها على أحكام الشريعة الإسلامية، ومن ثم إلغاء كل ما يتعارض معها، ويتم ذلك من خلال لجان شرعية موثوقة ذات صلاحية.

* أن تتوافر في مسؤولي الدولة وممثليها في الداخل والخارج استقامة السلوك مع الخبرة والتخصص، والإخلاص والنزاهة، وأن الإخلال بأي شرط من هذه الشروط لأي اعتبار كان تضييع للأمانة، وسبب جوهري للإضرار بمصالح البلد وسمعته.

* تحقيق العدالة والمساواة بين جميع أفراد المجتمع في أخذ الحقوق وأداء الواجبات كاملة دون محاباة للشريف أو منة على الضعيف، وأن استغلال النفوذ أيا كان مصدره في التملص من الواجبات أو الاعتداء على حقوق الآخرين سبب لتمز ق المجتمع والهلاك الذي أنذر به النبي ﷺ .

* الجدية في متابعة ومحاسبة كل المسؤولين بلا استثناء، لاسيما أصحاب المناصب الفعالة، وتطهير أجهزة الدولة من كل من تثبت إدانته بفساد أو تقصير بصرف النظر عن أي اعتبار.

* إقامة العدل في توزيع المال العام بين جميع طبقات المجتمع وفئاته، وإلغاء الضرائب وتخفيف الرسوم التي أثقلت كواهل الناس وحفظ موارد الدولة من التضييع والاستغلال,، ومراعاة الأولوية في الصرف على الاحتياجات الملحة، وإزالة كافة أشكال الاحتكار والتملك غير المشروع، ورفع الحظر عن البنوك الإسلامية وتطهير المؤسسات المصرفية العامة والخاصة من الربا الذي هو محاربة لله ورسوله وسبب لمحق البركة.

* بناء جيش قوي متكامل مزود بأنواع الأسلحة من مصادر شتى مع الاهتمام بصناعة السلاح وتطويره، ويكون هدف الجيش حماية البلد ومقدساته.

* إعادة بناء الإعلام بكافة وسائله وفق السياسة الإعلامية المعتمدة للمملكة ليخدم الإسلام، ويعبر عن أخلاقيات المجتمع ويرفع من ثقافته، وتنقيته من كل ما يتعارض مع هذه الأهداف، مع ضمان حريته في نشر الوعي من خلال الخبر الصادق والنقد البناء بالضوابط الشرعية.

* بناء السياسة الخارجية لحفظ مصالح الأمة بعيدا عن التحالفات المخالفة للشرع، وتبني قضايا المسلمين مع تصحيح وضع السفارات لتنقل الصبغة الإسلامية لهذا البلد.

* تطوير المؤسسات الدينية والدعوية في البلاد، ودعمها بكل الإمكانات المادية والبشرية، وإزالة جميع العقليات التي تحول دون قيامها بمقاصدها على الوجه الأكمل.

* توحيد المؤسسات القضائية، ومنحها الاستقلال الفعلي والتام، وبسط سلطة القضاء على الجميع، وتكوين هيئة مستقلة مهمتها متابعة تنفيذ الأحكام القضائية.

* كفالة حقوق الفرد والمجتمع وإزالة كل أثر من آثار التضييق على إرادات الناس وحقوقهم بما يضمن الكرامة الإنسانية حسب الضوابط الشرعية المعتبرة.

المدفع العملاق في الرياض

يقفز بعض المتابعين لمسيرة التغيير في الجزيرة العربية من الحديث عن خطاب العلماء إلى الحديث عن مذكرة النصيحة متجاوزين أحداثاً هامة في تلك الفترة الزمنية الحرجة، ترتبت عليها آثار وطّأت الأرضية، وهيّأت الأجواء لمذكرة النصيحة، وربما لم تكن تلك الأحداث أقل شأناً من خطاب المطالب ولا مذكرة النصيحة، رغم أنها لم تحظ بنفس الشهرة والانتشار، فما هي هذه الأحداث وكيف نشأت وتعاقبت؟ هذا ما سنتطرق له في هذا المبحث من مذكرات الصحوة.

الخطاب بداية فقط

كان مشروع خطاب العلماء بداية لتنفيذ الركن الأهم من استراتيجية التغيير، وهو إيصال رسالة الإصلاح للجمهور، وكان لدى المجموعة العاملة قناعة بأن من ضرورات التغيير الشامل والراسخ أن تعيش معك الأمة قضية الإصلاح، وأن تطلع على تلك الرسالة بتفاصيلها، وكان الخطاب هو الذي كسر الحاجز بين الأمة ومسيرة التغيير.

رغم أهمية الخطاب بوصفه قفزة حضارية ونقلة نوعية للمجتمع، فإنه لم يكن إلا بداية وكان لابد من إكمال مهمة إيصال تلك الرسالة، وإبقاء الأمة دائماً على علم بحقيقة حالها، وما يجب أن تكون عليه، وفي مثل الظروف التي تلت مشروع خطاب العلماء توجب أن يبدأ أي مشروع من حيث انتهى الخطاب ليبني على مكتسباته.

شرح الخطاب

وتطبيقا لتلك الفكرة اتفقت المجموعة المعدة للخطاب على إنجاز ذلك الأمر من خلال شرح مادة الخطاب، إلا أنها اختلفت حول أسلوب الشرح ونوعية الجمهور المخاطب به إلى فئتين: أما الفئة الأولى فهي الفئة التي أخذت بنجاح مشروع الخطاب، وعاشت في أصدائه واهتمت بردود أفعاله، وتأثرت بهاجس المراعاة لوضع الحكام والعلماء معتبرة ذلك أهم من الاستمرار في الخطاب المفتوح الواسع، وأما الفئة الثانية فهي الفئة التي رأت استكمال نفس الفكرة بالنظر إلى الهدف البعيد رغبة في تغيير الواقع والتأثير في المحيط بدلاً من التأثر به، واعتبار واقع الحكام والعلماء من القضايا المؤقتة التي تغير المبادرات الاستراتيجية كل معطياتها، ورأت الفئة الثانية أن ذلك لا يتحقق إلا من خلال استمرار أسلوب الخطاب الصريح الموجه إلى عامة الأمة، ولقد أظهرت الممارسة العملية أنه لم يكن ثمة تعارض بين الفكرتين، وسعى كل فريق لتنفيذ فكرته دون إبطال لفكرة الفريق الآخر.

الشرح الكتابي

أما الفريق الأول فسعى لتحقيق فكرته من خلال إعداد وثيقة تفصيلية تشرح المطالب وتدعمها بالدليل والتأصيل الشرعي، ومن ثم تقديمها لأعضاء هيئة كبار العلماء وبعض المسؤولين دون توزيعها على العامة، وكان أصحاب هذا الرأي حريصين على كسب رأي العلماء واسترضائهم أكثر من حرصهم على استكمال مشروع الخطاب العريض، ونظراً لأن هذه المهمة سهلة التنفيذ سواء من ناحية إعداد الوثيقة أو من ناحية توزيعها المحدود، فقد نفذت بسرعة من خلال إعداد بضعة صفحات من النصوص الشارحة للخطاب سلمت للأشخاص المعنيين.

ولا يُعرف إن كان الهدف الذي أعدت من أجله هذه الوثيقة تحقق أم لا؟، فهو هدف غير قابل للقياس إذ من الصعوبة بمكان معرفة وجهة نظر العلماء الرسميين إلى أن يختبروا في أزمة أخرى، أما من حيث الآثار الاجتماعية فمن الطبيعي أن لا تترك هذه الوثيقة التي أعدت وسلمت للعلماء في نهاية شوال من عام 1411هـ أثراً يذكر.

الشرح الصوتي

وأما الفريق الثاني فقد سلك طريقاً تعثر في بدايته، ثم ما لبث أن غير مساره فحقق نجاحاً جيدا، وكانت الخطة المطروحة لتحقيق فكرة هذا الفريق هي إقناع أحد العلماء أو الدعاة أو عدد منهم بالتصدي لمهمة شرح خطاب المطالب من فوق المنبر، والمقصود هنا ليس مجرد شرح الخطاب والتعريف ببنوده وتقديم التأصيل الشرعي له، وإنما المقصود هو تعويد الشارع وتدريب الجمهور على نقاش القضايا الحساسة مع قياداته الشرعية ورموزه الاجتماعية دون خوف أو تردد، واعتبار الحوار في قضايا السياسة والعلاقة بين الحاكم والمحكوم حقاً شرعياً للأمة وأمراً طبيعياً ينبغي أن يحدث بشكل روتيني منتظم، وسعياً لتنفيذ تلك الفكرة فقد فوتح عدد من الدعاة بها، لكن النتيجة جاءت مخيبة للأمل، حيث اعتذر كل الذين فوتحوا لعدم استعدادهم لتلك المهمة بطبيعة الحال ليس تهرباً ولا نكوصاً، ولكن لعدم القناعة بأن الأمة مهيأة لهذه الخطوة "الخطيرة"، وفي تقديري كان ذلك الاعتذار نكسة، وكان عذر هؤلاء غير مقبول في نواميس التغيير، فكيف يراد للأمة أن تتهيأ إذا لم يسع لتهيئتها روادها، ولماذا تضيع هذه الفرصة الذهبية وأصداء الخطاب لاتزال تتردد في أرجاء البلاد، وكأني بثمرة يانعة تبحث عمن يقطفها، فعافها من هو أحق بها وتركها.

ولربما كانت الرموز في تلك المرحلة أبطأ من حركة الجمهور واستعداد الأمة أكبر من عطاء الرموز، ولذلك فقد كانت التطلعات أكثر من قدرات وإمكانيات الحركة الإسلامية.

أمام هذا الاعتذار من قبل القيادات، لم يكن التراجع مقبولاً، وكان لابد من وسيلة أخرى يتم بها تجاوز تلك الصعوبة، وهنا لاحت لنا طريقة تنفذ بها الوسيلة، شريط مسجل بصوت شخص غير معروف تتضمن الشرح الكامل للخطاب.

مشروع جاد

قفزت الفكرة إلى الذهن كما لو كانت طرفة أو خيالا، ثم ما لبثت أن تحولت إلى مشروع جاد، وحرص الذين تبنوا تلك الفكرة علي أن يبقوها داخل إطارهم منعاً لإحراج الفريق الآخر الذي تحفظ على أصل الفكرة، وهكذا تقرر أن نشرع في تنفيذ الفكرة التي تحولت في النهاية إلى إنتاج شريط من جزئين غاية في الخطورة، بل بلغت خطورته أن سمّاه بالمدفع العملاق، تشبيهاً له بالمدفع الذي كان يصنعه العراق بزعم ضرب إسرائيل، والذي كان حديث الصحافة والإعلام في تلك الأيام.

لقد جاء الشريط ليملأ فراغاً هاماً في ساحة العمل السياسي في الفترة ما بين خطاب العلماء ومذكرة النصيحة، فكيف أعد هذا الشريط وما هي ملابساته وآثاره؟

يعتبر إنتاج شريط بصوت سري عملاً حساساً من الناحية الأمنية، وكان من طبيعة العاملين في الساحة الإسلامية تجنب الأعمال التي توحي بالمواجهة، ولذلك كان من المنطقي أن يتخذ قرار إنتاج هذا الشريط بمعزل عن أي شخص تحفظ على إعداده، ولهذا السبب ائتمر الأفراد الذين تحمسوا للمشروع في مجموعة منفصلة دون أن يعلم عنه الآخرون، وشرعوا في تنفيذ الفكرة بشكل مستقل.

محاولة غير مكتملة

كانت فكرة الشريط ابتداءً موجهة لنفس مفهوم شرح الخطاب بشكل مباشر، ومن ثم حورت قليلاً إلى الحديث عن واقع البلاد الشرعي والاقتصادي والعسكري والاجتماعي، وتم فعلاً كتابة مادة الشريط في نهاية شهر شوال 1411 وبداية شهر ذي القعدة، وفيما نحن نعد المادة تكفل أحد الإخوة بمهمة العثور على قارئ مستعد للتضحية فيما لو عرف صوته، وبعد بحث مضن عثر على من أبدى استعداده للقيام بالمهمة، وفي نفس الأثناء أعدت المادة وطبعت على الآلة الكاتبة لتسهيل مهمة القراءة، وكان كل ذلك محاطاً بالسرية التامة حتى عن الفريق الآخر من المجموعة التي اشتركت في إعداد الخطاب.

وقبيل الحج أنجزت مهمة تسجيل المادة على الشريط، وكنا حريصين على إدراك موسم الحج لنستثمر فرصة التجمع الإسلامي العظيم لتوزيع الشريط على أوسع نطاق، وكان الذي تكفل بمهمة التسجيل على غير اطلاع بتكنولوجيا التسجيل وتغيير الأصوات، وحاول تغيير الصوت بأساليب بدائية لم تحقق التغيير المطلوب، ومع ذلك فقد نسخ من الشريط مئات النسخ وعبئت السيارات المتجهة للحج من أجل توزيع الشريط

في الحج، ولم تكد السيارات تنطلق متوجهة إلى مكة المكرمة حتى بدا لقارئ الخطاب أن تغيير الصوت لم يكن ناجحاً وأن كل من سيسمعه سيميّزه، وهنا سارع إلى اللحاق بالسيارات وإقناع أصحابها بتفريغ الحمولة وإتلافها، وبهذا جمدت الفكرة إلى أجلٍ.
ورغم تعاطفنا مع صاحب الصوت وإشفاقنا عليه فقد أسفنا على فوات فرصة الحج، حيث كان يمكن توزيع مئات بل آلاف النسخ من الشريط دون محاذير أمنية وبالسرعة المناسبة، لكننا عندما عدنا إلى مادة الشريط وراجعناها تبين لنا أن تراجع الأخ المذكور كان من توفيق الله، حيث دلت المراجعة الثانية أن المادة فيها محاذير كثيرة قد تضر بالهدف الذي أعدت من أجله، وبدا لنا أن المادة كتبت على عجل وبأنها تستحق من الوقت والجهد والمراجعة أكثر مما نالت، وعندها وقفنا قليلاً، وقررنا إعادة النظر في عدة أمور بما في ذلك محتوى الشريط، واختيار القارئ وطريقة التسجيل وتغيير الصوت.

المحاولة الثانية

حين ناقشنا فكرة المحتوى تبين لنا أن الاستعجال في شرح بنود خطاب المطالب قد يكون سابقاً لأوانه، خاصة، وأن توزيع ونشر خطاب المطالب قد كشف عدداً كبيراً من المفاهيم المغلوطة الملصقة بالشرع مثل مفهوم سرية النصيحة ومفهوم الخلط بين الفتنة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واقتنع الجميع بعد حوار طويل أن الأولوية هي لتصحيح هذه المفاهيم حتى تصبح العقول مهيأة لسماع أي شرح لخطاب المطالب.

الشريط الأول

وعند ذلك شرعنا فوراً في إقصاء عدد من تلك المفاهيم الخاطئة والرد عليها من خلال تأصيل شرعي عميق، وتضمن الشريط كذلك تساؤلات عن حقيقة دعوى تطبيق النظام السعودي للشريعة، واختتم الشريط بأربع رسائل هامة منها واحدة للنظام الحاكم نفسه، وأخرى للعلماء، والثالثة للجيش، والرابعة للمباحث، وصيغت هذه الرسائل بعناية فائقة حتى تحقق أكبر درجة ممكنة من الحرج للجهات المخاطبة.
وسعياً لإنجاح فكرة الشريط، فقد حرصنا فيه على اللغة الشرعية الرصينة والبعد عن القضايا الفردية والهجوم الشخصي، بل حرصنا فيه على الاقتصار على القضايا التي هي محل إجماع وقبول، وحرصنا فيه كذلك على تجنب إجبار السامع على أي موقف، بل كانت المادة عرضاً للفكرة بالدليل والشواهد والقرائن، وتُرك الاستنتاج للسامع، وهو فيما ظنناه الأسلوب الأكثر تحبيباً للسامع وتحفيزاً له للوصول إلى الاستنتاج بنفسه.
تم الانتهاء من إعادة صياغة المادة بنجاح وبسرعة مناسبة، وبينما كانت تجري طباعتها على الآلة الكاتبة كنا في الحين نفسه نبحث عن متطوع آخر ليسجلها بصوته على الشريط، وكنا أيضاً نبحث عن وسيلة فنية لتغيير الصوت، أما القارئ فوفقنا للحصول عليه بطريقة تشبه المعجزة، ولا تسمح الظروف ببسط تفاصيلها، وفي نفس الوقت عثرنا على جهاز تسجيل خاص يغير الصوت اشتريناه لهذا الغرض، وفي أواخر شهر المحرم من عام 1412هـ وأوائل شهر صفر أعد الشريط وغُيّر الصوت، وبعدها نسخت عشرون نسخة تقريباً، أرسلت كل واحدة منها إلى منطقة من المناطق ومن هناك انتشر الشريط انتشاراً واسعاً وبسرعة كبيرة.
اتسعت دائرة انتشار الشريط وتجاوزت حدود الشباب المتحمس والحركي إلى دائرة العلماء فالمثقفين، وأصبح الشريط حديث المجالس، وتسابق الناس لإطلاق الأسماء عليه، ولكن كان أكثر الأسماء شيوعاً هو "المدفع العملاق" تعظيماً لمحتواه.

شريط.. لغز

ورغم أن الشريط كان بصوت شخص غير معروف، فقد لاقى استحساناً وقبولاً لدى معظم شرائح المجتمع، وتبين أن السياسة التي اتبعناها في ضبط صياغة الشريط قد آتت أكلها، أما الهدف الأساسي منه وهو تصحيح المفاهيم فلم يكن ليتحقق بتلك السرعة، لكنه كان يكفينا أن نضع تلك المفاهيم التي غرسها النظام على مدى الأجيال موضع الشك، فاقتصار النصيحة على الأسلوب السري رغم علنية المنكرات لم يعد أمراً مسلماً، كما لم يعد لفظ "العالِم" اسماً محصوراً على العالِم الذي يعينه الحاكم، بل إن العالِمَ هو العامل بعلمه الداعي له والصابر على الأذى في ذلك، ولم تعد مهمة إنكار المنكر من تخصص فئة معينة من الناس، بل هي مهمة كل قادر من المسلمين عارف بفقه المنكر الذي ينكره، ولم يعد الصدع بالحق من إثارة الفتنة والبلبلة بين الناس، بل هو من الواجبات والفرائض العظيمة التي تأثم الأمة بتعطيلها، وهكذا كان كل واحد من هذه

المفاهيم موضع تحقيق ومراجعة وإعادة إلى الأصول الشرعية التي كشفت الفرق بين إسلام محمد ﷺ وإسلام آل سعود، وبين فهم الصحابة وفهم علماء السلطة.

كان صوت القارئ رخيماً دافئاً أضفى على الشريط رزانة وثقلاً، وساعد على قبوله وانتشاره، ولقد أبدى كثير من السامعين إعجابهم بعمق التأصيل الشرعي والخطاب المنضبط المسؤول، وجزم كثير ممن سمع الشريط بإمعان بأن القارئ طالب علم جيد، ولم يخطر ببالهم أنه يقف خلف ذلك الشريط مجموعة، وأن القارئ ليس إلا واحداً منهم.

أرق الملك

كان من الطبيعي أن يحدث انتشار الشريط إحراجاً للنظام الذي فوجئ به كعمل جديد وظاهرة لم يتعود عليها ولم يتهيأ لها، بل يقال إن الملك لم يتمكن من النوم ثلاث ليال متتالية بعد سماعه للشريط، ولقد كانت الاحتياطات الأمنية التي اتخذت في الإعداد قوية لدرجة أن أقرب القريبين لم يعرف بخبره، ولقد حرص الذين أعدوا الشريط على قطع الخيوط والحبال التي تؤدي له، فلم يسلم الشريط باليد لأي جهة توزيع، بل كان يوزع من تحت الأبواب، أو يرمى داخل السيارات، أو في صناديق البريد، ولذلك لم تفتح قناة واحدة يمكن من خلالها تتبع مصدر الشريط.

لم يشأ النظام أن يواجه أزمة الشريط علانية، حتى لا يمنح الشريط دعماً إعلامياً يرفعه من مستوى السرية إلى العلنية، بل حرص على تتبع الموزعين ومحاولة معرفة المصدر، وكان النظام يعتقد أن الموزعين يقتصرون على مكان أو مكانين، لكن تبين أن التوزيع شامل في جميع أنحاء البلد، وباءت كل محاولات النظام لتتبع مصدر الشريط بالفشل الذريع، فكل سلسلة تنتهي بشريط في السيارة أو من تحت الباب أو على طاولة الدراسة أو في المسجد، وبعد ذلك الفشل بثت سلطات المباحث إشاعة مفادها أن من يدل على مصدر الشريط فله ستة ملايين ريال، وانتشرت تلك الإشاعة بشكل كبير، وتعامل معها بعض الموتورين كعرض جاد، وسعوا فعلاً لمعرفة المصدر، لكن بلا جدوى.

انتشار ذاتي

كان من الطبيعي أن يستغرق انتشار الشريط أكبر بكثير من انتشار الخطاب، فالخطاب يصور بأي آلة تصوير وتنسخ منه عشرات النسخ في دقائق معدودة، أما الشريط فلا ينسخ إلا بأجهزة خاصة، ويستغرق النسخ زمناً طويلاً ويحتاج مالاً كثيراً، ومع ذلك فقد كان الانتشار أسرع من المتوقع، فلم تمض أسابيع حتى كان في جميع أنحاء البلد، ومن لم يسمعه سمع به، وبدأ يبحث عنه.

الشريط الثاني

حين سُلم الشريط الأول لمراكز التوزيع شرعنا فوراً بإعداد الشريط الثاني، وبدلاً من أن نجعل مادته مجرد شرح لبنود خطاب المطالب، فقد تحولت المادة إلى تقويم للنظام من الناحية الإسلامية، حيث أعدت المادة بحيث تقارن بين الشكل الذي يفترض أن تكون عليه الدولة الإسلامية، وبين واقع دولة آل سعود وممارساتها في مجال السياسة والقضاء والاقتصاد والاجتماع والجيش والإعلام، وغير ذلك من الأمور، وحرصنا مرة أخرى على أن يكون التأصيل الشرعي عميقاً، وحرصنا كذلك على أن لا نلزم السامع بأي استنتاج ونترك له استخلاص النتيجة بنفسه، وسجل الشريط ووزع بنفس الطريقة في نهاية ربيع الثاني وبداية جمادى الأولى من عام 1412هـ، أي بعد شهرين تقريباً من تاريخ توزيع الشريط الأول، واستمر توزيع الشريط يتنامى، واستمر الحديث عنه وعن مادته، وبقي سر الشريط طي الكتمان سنتين كاملتين.

مفيد ولكن

ورغم قوة مادة الشريط وسعة انتشاره إلا أنه لم يكن في الحقيقة عنصراً رئسياً في مسيرة الإصلاح، وإنما كان عامل دعم ومساعدة وتأييد، لقد أعان الشريط على تهيئة الأجواء من خلال دحض المفاهيم المغلوطة كما أعان على تثقيف الجمهور بحقيقة الفرق بين الشعار الذي ترفعه الدولة في تطبيق الإسلام وبين ممارساتها الحقيقية، ومع أن الشريط لم يكن في ذاته من ضمن وثائق التغيير، لكنه في الحقيقة وطّن للتغييرات الهامة التي لحقت، فلم تمض أشهر قليلة إلا وأنشئت لجنة الجامعة للإصلاح والمناصحة، وما كاد العام ينصرم، حتى قدمت الوثيقة الثانية من الوثائق الكبرى

للصحوة وهي مذكرة النصيحة، لقد كان الشريط بمثابة تمهيد لتلك المذكرة وتهيئة لإخراجها إلى حيز الوجود، وفي اعتقادنا لم تكن مذكرة النصيحة إلا ترجمة معلنة لمحتوى ذلك الشريط.

مذكرة النصيحة

انتشر الشريط الأول من أشرطة المدفع العملاق في محرم من سنة 1412هـ، وانتشر الشريط الثاني بعده بأربعة أشهر، وكان الناس في تلك الفترة لا يزالون حديثي عهد بخطاب المطالب، بل وبتداعيات أزمة الخليج.

مناسبة نافعة

في رجب من العام نفسه حصلت حادثة هامة في جامعة الملك سعود ترتب عليها مجموعة من الأحداث تمخضت أخيراً عن الوثيقة المشهورة بمذكرة النصيحة.

كان حديث الناس في تلك الأيام عن مؤتمر مدريد للسلام وموقف الشرع منه، وكانت مجموعة من علماء الشباب يربو عددهم على العشرين قد قدموا رسالة للشيخ ابن باز ينصحونه بها بعدم التورط في دعم هذا المشروع الخطير، وتسرب للجمهور نسخة من هذه الرسالة التي احتوت على الدليل الشرعي والمنطقي على أن أي فتوى في ذلك الاتجاه إنما هي خيانة للدين وتقوّل على الله بغير علم وتضليل للأمة، وبالمناسبة فقد كانت تلك الرسالة من أحد الأسباب المهمة في تأخر فتوى الشيخ ابن باز في تأييد الصلح، حيث لم يعلن عن ذلك إلا بعد أن اعتقل معظم أولئك الموقعين على تلك الرسالة، وأودعوا السجون.

في مسجد الجامعة

حاول خطيب المسجد الجامع في مسكن أعضاء هيئة التدريس في جامعة الملك سعود الادلاء بدلوه في نقاش قضية السلام مع أن وزارة الأوقاف كانت قد أصدرت تعميماً بعدم التطرق لهذا الموضوع.

وكانت تلك الخطبة غير مركزة وغير واضحة، ولم يتبين من الخطيب إن كان يؤيد أو يعارض مشروع مدريد مما تسبب في تضايق وتململ المصلين، لم تكد الصلاة تنقضي حتى قام أحد أعضاء هيئة التدريس، وانتقد بقوة تلك الميوعة في طرح القضية وأكد بوضوح أن ما يجري في مدريد هو تقبيل لأقدام الصهاينة واضفاء للشرعية على الكيانات المغتصبة لبلاد المسلمين، ولقد تبين أن المصلين تجاوبوا مع هذا التعليق وأعجبهم تحديد ذلك الموقف.

استدعاء

غير أن السلطات لم يعجبها ذلك، فلم تمر أيام حتى استدعي الخطيب نفسه من قبل إمارة الرياض ومن قبل وزارة الأوقاف، واعتبر مسؤولاً عن إثارة القضية وعن السماح لغيره بالتعليق، وكان الاستدعاء مهيناً ومحرجاً حقيقة، فقام الخطيب بالرد بطريقته الخاصة، حيث جعل كل خطبته في الجمعة التالية عن جهاز المباحث، وكيف أن مهنة المباحث مهنة محرمة وأن حقيقتها هو التجسس والنميمة، ولاشك في ذلك.

وكان الخطيب قد اجتهد، وأعد مادة ممتازة في هذ ا الباب حركت عقول وعواطف ومشاعر المصلين ضد أجهزة التجسس والنميمة، حتى لقد أصاب المصلين من أعضاء هيئة التدريس نشوة بسماع مثل هذا الكلام من فوق المنابر، ذلك لأن الجميع يعلم أن المباحث مجرمون ممتهنون للتجسس والنميمة، لكن لا أحد يجرؤ على أن يقول ذلك من فوق المنبر.

الخطيب يفصل

لكن هل كانت السلطات لتسكت؟ هذالمرة لم تكتف باستدعاء الخطيب، بل صدر أمر من جهات عليا بفصله من الخطابة، ومنعه من ارتقاء

المنبر، وانتشر خبر فصل الخطيب في منتصف الأسبوع حيث كان هناك ما يكفي من الوقت لإعداد رد فعل مناسب من قبل روّاد المسجد، لقد اجتمع عدد من الاساتذة اجتماعاً عاجلاً، وقرروا التعبير عن عدم الرضا علناً في المسجد نفسه إذا حضر أي خطيب آخر.

مهرجان ولجنة

جاء يوم الجمعة التالية، وحلّ وقت الصلاة فلم يظهر الخطيب السابق، بل صعد إلى المنبر شيخ آخر، وأقيمت الصلاة وعندما سلم الإمام، قام أحد الأساتذة وتساءل عن خطيب الجمعة ما الذي أصابه، وعندها قام الخطيب الراتب وكان من بين المصلين، وأخبر المصلين جميعاً أنه مفصول، ثم جلس فقام بعده سلسلة من المتكلمين يعبرون عن انزعاجهم من هذا التصرف واعتراضهم على معاملة أساتذة الجامعات كالحيوانات، بل إن أحد المتكلمين قرأ خطاب وزارة الأوقاف علناً، وعلق عليه بسخرية ونقد شديدين، وتحولت تلك الكلمات إلى ما يشبه المهرجان حيث تتابع على المايكروفون ما يقارب العشرة من الأساتذة، الذين طالبوا بضرورة تكوين وفد من المصلين يقابل المسؤولين ويعبر عن رفضه لتلك التصرفات، وبادر أحد المتكلمين، وطلب من المصلين تكوين لجنة لدراسة القضية ومناقشتها مع الجهات المختصة، وفعلاً تم ذلك في نفس الجلسة حيث انتخب من بين المصلين اثني عشر أستاذاً من أساتذة الجامعة، وأصبحوا أعضاء في لجنة المطالبة بعودة الخطيب، وكان الحماس لدى الجميع بادياً إذ باشرت اللجنة عملها فوراً، واجتمعت في نفس المسجد بعد ذلك المهرجان، وانتخبت مقرراً وأعدت جدول أعمال لمتابعة القضية، وكلفت أعضاءها بمهمات للقاء القادم.

وشريط آخر

كانت أحداث تلك الجمعتين قد سجلت على شريط كاسيت كاملة، حيث كان عدد من الشباب قد تهيأ بأجهزة التسجيل استعداداً لتسجيلها ومن ثم نشرها، وما إن انتهى المهرجان حتى دمج تسجيل الخطبة التي تحدثت عن المباحث والمهرجان كاملاً في شريط واحد، ونسخت منه نسخ عديدة، حيث انتشر بعد ذلك بشكل سريع وكثيف يوازي انتشار المدفع العملاق، وسمي بعد ذلك عدة أسماء منها شريط مهرجان الجامعة، شريط حكم المباحث، وقد ساعد انتشار هذا الشريط على إيصال الرسالة إلى دائرة أكبر بكثير من دائرة الجامعة، وهي خطوة مهمة جداً حتى تثبت للجميع أن هناك من رواد الإصلاح من لا يرضى بالضيم والظلم، وهو مستعد على الأقل بمحاولة تغيير المنكر بلسانه وإبراء ذمته علناً، ومستعد للتخطيط للعملية وترتيبها ومتابعتها متابعة منظمة، وكان لذلك أثر جيد في تحقيق مشروع التوعية والاستنهاض العام.

احتجاج

بعد أن تفرق الناس من المسجد لم يفتر حماس أعضاء اللجنة، واجتمعوا مرة أخرى في نفس الليلة، وشرعوا في إعداد خطاب موجه للملك حول تلك الحادثة، وكُلف أحد الأعضاء بالاتصال بإمارة الرياض لتحديد موعد لمقابلة أمير الرياض، وعندما اتصل الشخص المكلف بالأمارة طلبه الأمير شخصياً للمقابلة ورفض مقابلة المجموعة كاملة، وعندما حضر في الإمارة حاول الأمير سلمان إيصال رسالة تهديد وغضب من قبله ومن قبل آل سعود للمجموعة التي رتبت ذلك المهرجان، ورفض مرة أخرى فكرة مقابلة اللجنة، ومن طرائف ما قاله سلمان معبراً عن غضبه: '' إنكم لن تخيفونا بمهرجانكم ولا بشريط المدفع العملاق''، وأشار إلى شريط كاسيت موضوع على طاولته في مكتبه في الأمارة، وكان يقصد شريط المدفع العملاق نفسه الذي سبق الحديث عنه، ومن الطرائف أن الشخص الذي قابل سلمان لم يكن يعلم شيئاً عن المدفع العملاق، فأثارت عنده تلك التسمية شيئاً من الدهشة والاستغراب ولسان حاله يقول عمّاذا يتحدث الأمير، وقام الأمير سلمان بتوجيه تهديد للجنة بأن أعضاءها يعرضون أنفسهم للاعتقال إذا ما قاموا مرة أخرى بالحديث في المسجد.

اللجنة تعمل

بعد أن رفض الأميرسلمان المقابلة اجتمعت اللجنة، وقررت السعي للالتقاء بالملك شخصياً، وتقديم الخطاب له يداً بيد، وقررت اللجنة إحاطة المصلين علماً بالتطورات لأنهم هم الذين انتخبوها واختاروها، وتصدى لتلك المهمة مقرر اللجنة الذي قام بعد صلاة الجمعة في الاسبوع التالي،

وأفاد المصلين بالتطورات، وقرأ عليهم صيغة الخطاب الموجه للملك طالباً منهم ابداء ملاحظاتهم أو تعليقاتهم، وأجيز الخطاب من قبل المصلين.
بعد ذلك التقت اللجنة من أجل ترتيب عملية مقابلة الملك، وكلف أحد الأعضاء بالاتصال بالديوان الملكي الذي رفض إعطاء موعد للجنة، وبعد أن أيست اللجنة من احتمال مقابلة الملك قررت التوجه بطريقين الأول مقابلة ولي العهد، والثاني مقابلة الشيخ ابن باز، أما مقابلة الشيخ ابن باز فكانت سهلة جداً حيث رحب الشيخ بالفكرة، ووافق علي إجراء المقابلة فوراً، وكانت مقابلة الشيخ هي القناة التي تأسس من خلالها لجنة الجامعة للاصلاح والمناصحة، وأعد من خلالها مذكرة النصيحة.

ولي العهد وابن باز

وأما مقابلة ولي العهد فقد لاقت بعض الصعوبات، وأخيراً تمت لعدد محدود، وكانت عديمة الفائدة لأن ولي العهد عبر بشكل غير مباشر عن عدم متابعته للأحداث ورغبته في عدم التدخل.
أما لقاء الشيخ ابن باز فكان جيداً حيث رحب الشيخ باللجنة، وتكفل من جهته بإيصال خطاب الاحتجاج إلى الملك، وكان أهم ما حصل مع الشيخ بالإضافة إلى تعارفنا معه وتعريفه بما يجري هو الاتفاق معه على لقاء شهري لمتابعة قضايا تخص الجامعة والمجتمع ووافق الشيخ بحماس على تلك الفكرة.

خطيب الحكومة

التطور الآخر جاء في الجمعة الثالثة بعد جمعة المهرجان، حيث فوجئنا في الجامعة بخطيب يرفع سيف الهجوم علينا في الجامعة، ويتهمنا بسوء النية لأننا قمنا بالنصح علناً، ويغدق في مدح آل سعود حتى جعلهم "غرّة في جبين التاريخ"، ورغم تهديد سلمان واتفاق أعضاء اللجنة على تجنب الإثارة وتفادي المواجهة لم يتحمل أحد أعضاء اللجنة الموقف، وقام بعد الصلاة معبراً عن امتعاضه من كلام الخطيب، ثم قام بعده أستاذان آخران من الجامعة تحدثا بما يشفي الغليل حيث بين المتحدثون للمصلين أن الخطيب مغالط وجاهل، وعندما انتهى المتحدثون قام المصلون إلى الخطيب يعاتبونه ويؤنبونه علي كلامه.
رغم تهديد سلمان لم يتعرض أحد من المتحدثين لأي استجواب بعد قيامهم في المسجد وانتقادهم الخطيب، ولقد أعطت تلك الحادثة دفعة جديدة لأعضاء اللجنة وأنصارهم بالمضي قدماً في مشروعهم وتطويره.
عاد أعضاء اللجنة من الشيخ ابن باز شاعرين بأن هناك شيئا من الإنجاز، ورغم شعورهم بعجز الشيخ فقد اعتبروا الاجتماع معه خطوة نافعة ومفيدة لكف شر النظام عنهم، خاصة وأنه وافق على تحويل هذا الاجتماع إلى لقاء دوري.

اللجنة ومشروع متكامل

بعد لقاء الشيخ اجتمعت اللجنة وقررت توسيع مهمتها من مجرد المطالبة بعودة الخطيب إلى مجموعة مطالب شاملة للإصلاح، وتقرر أن ترتب وتناقش مع الشيخ بطريقة شمولية.
تم اللقاءالثاني مع الشيخ قبيل رمضان، وكان اللقاء بمثابة استعراض لأوضاع البلد أمام الشيخ من أجل تعريفه حقيقة بما يجري ولإبراء الذمة من قبلنا، ولإقامة الحجة على الشيخ نفسه، ولقد تبين أن الشيخ لم يتعود على عرض بمثل ذلك التفصيل والشمول.
فكان كلما تجاوزنا قضية طلب منا أن نكتب له فيها حتى يتبنى الأمر، وأن يوصله إلى الملك أو المسؤولين، وبعد أن كرر الشيخ طلبه ذلك اقترحنا عليه أن نجعل الكتابة واحدة وشاملة، وأن نحيط فيها بكل تلك القضايا المطروحة، وتحمس الشيخ للفكرة وأيدها، وطلب منا الشروع فيها.

المسودة الأولى

اجتمعت اللجنة بعد ذلك، وتناقشت في طلب الشيخ حيث تحمس للفكرة عدد من أعضاء اللجنة، وأبدوا استعدادهم لإعداد مسوّدة كاملة عن أ وضاع البلد وعرضها على اللجنة خلال أسبوع، وكان ذلك الاستعداد بمثابة التحدي من قبل الآخرين من أعضاء اللجنة، ومضى أسبوع كامل،

واجتمعت اللجنة، وكانت تلك المجموعة المتحمسة عند وعدها، إذ وجد أعضاء اللجنة المسوّدة جاهزة، وكان لكل عضو من أعضاءها نسخة، عند ذلك اقتنعت اللجنة بتطوير الفكرة وتحويل تلك المسوّدة إلى مذكرة جامعة عن أحوال البلد، وكلفت من أعضاءها مجموعات فرعية للكتابة التفصيلية في الأبواب التي تطرقت إليها المسوّدة، وشرع المكلفون فعلاً بإعداد الأبواب التي كلفوا بها، وحل علينا رمضان في ذلك العام ونحن نعد تلك المذكرة، وتقرر أن يكون كل لقاء من لقاءات اللجنة التي أصبحت لقاءات منتظمة في كل أسبوع مخصصاً لمراجعة أحد الأبواب، وفي أحد الاجتماعات في منتصف رمضان قرر الأعضاء مراجعة دور اللجنة التي تجاوزت عملياً دورها للمطالبة بإعادة الخطيب المفصول، وقررت اللجنة تحديد إطار لعملها وبرنامجها، وفي لقاء اللجنة التالي تقرر أن تهتم اللجنة بشؤون الإصلاح على مستوى الجامعة والمجتمع، وتهتم كذلك بمناصحة الجهات المتنفذة في الدولة، وسميت بناءاً على هذا الأساس بـ "لجنة الجامعة للإصلاح والمناصحة"، واختصرت الاسم بعد ذلك بعبارة "لجام"، التي تتكون من حروف الابتداء للكلمات التي يتألف منها الاسم، وأصبحت اجتماعات.

المسودة الثانية

استمرت لقاءات "لجام" بعد ذلك مجتهدة في مراجعة ما تم إعداده من مادة المذكرة إلى نهاية شوال، حيث أعدت من خلال تلك المراجعة المسوّدة الثانية للمذكرة التي تشبه إلى حد كبير الشكل النهائي للمذكرة.

بعد أن أعدت المسوّدة تقرر توزيعها علي عدد مختار من طلبة العلم لمراجعتها وتقريظها، وكان من أبرزهم الشيخ سلمان العودة والشيخ سفر الحوالي والشيخ عبد الله الجلالي والشيخ عبدالله الجبرين الذين أيدوا ما كتب فيها، وكتبوا لها تقريظاً جيداً، وتبين من خلال تلك المراجعة أن المذكرة جاهزة لعرضها للتوقيع.

وتقرر أن يطلب ممن تعرض عليهم المذكرة للتوقيع إبداء ملاحظاتهم من أجل أخذها في الإعتبار عند إعداد المذكرة بشكلها النهائي.

محاولة اجهاض

في ذلك الوقت والذي كان قبيل الحج بأيام تسرب خبر المذكرة إلى الأمير سلمان الذي طلب مقابلة بعض المشايخ من بينهم الشيخ عبدالله التويجري والشيخ سعير بن زعير والشيخ عبدالمحسن العبيكان، وكانوا ممن عرضت عليهم المذكرة، وحاول الأمير سلمان الضغط عليهم بهدف احتواءالمشروع أو إلغاءه، وحاول التلويح بعصا "العلماء" للتخويف من مغبة المضي قدماً فيها، وبلغت تلك الرسالة إلى مجموعة "لجام" وحصلت مقابلة مع الشيخ التويجري والشيخ العبيكان، وكاد سلمان أن ينجح في تجميد المشروع، حيث ثار جدل طويل استغرق عدة أسابيع حول المضي قدماً في مشروع المذكرة، واضطر بعض الموقعين أن يسحبوا أسماءهم، ويطمسوا توقيعاتهم إلا أن أعدادهم كانت قليلة، وكانت حجة الذين يريدون التجميد أنهم لا يريدون أن يواجهوا العلماء الرسميين، وأنهم يخشون أن تكون هناك عبارات غير دقيقة قد تجد هيئة كبار العلماء فيها مدخلاً لإيذاء الذين أعدوا المذكرة.

إنقاذ

وبينما كان الجدل محتدماً، طرح حل وسط للخروج من تلك الأزمة، وهو توجيه المذكرة للشيخ ابن باز بطلب مراجعتها، ورفع ما يقره منها للملك وبذلك يكون الذين أعدوا المذكرة غير مسؤولين عما لم يقر، ما داموا قد تركوا المسؤولية عند الشيخ ابن باز، إضافة إلى هذا الاقتراح الذي لقي تأييداً ونجح في حل الخلاف، كان هناك اقتراح آخر بإجراء مراجعة أخيرة من قبل اثنين من أكثر العلماء دقة وحذراً هما الشيخ عبدالله التويجري والشيخ عبدالرحمن البراك، ونجح ذلك المشروع فعلاً، حيث عاد الانسجام والحماس للمذكرة، وأعدت بشكلها النهائي بعد أن جمع لها أكثر من مئة توقيع من العلماء وأساتذة الجامعات والأعيان.

التسليم

بعدها تم إخراجها بجهاز الكمبيوتر، وجلّدت تجليداً فاخراً، وكتب على الغلاف عنوانها وهو "مذكرة النصيحة"، وحملها وفد مكلف من ثلاثة من

المشايخ وأساتذة الجامعات إلى الطائف حيث مقر الشيخ ابن باز الصيفي، وهنا تنفسنا الصعداء وظننا أن المهمة أنجزت، وقررنا التوقف والانتظار.

مذكرة النصيحة

مفاجآت وردود فعل

الأحداث سارت على غير ما توقعنا، حيث فوجئنا بعد ثلاثة أسابيع تقريباً بالمذكرة كاملة، وقد نشرت في جريدة المحرر الباريسية، وبعد ذلك بأيام فوجئنا بهيئة كبار العلماء تصدر بياناً عنيفاً تنتقد فيه المذكرة، وتتهم الذين أعدوها بسوء النية وقصد التشهير وكشف العيوب، وليس هكذا تكون النصيحة.

ولم يكن المستغرب هنا هو صدور بيان من الهيئة ضد المذكرة، فهذا ليس غريباً على الهيئة، لكن المستغرب هو كيف يقع العلماء في خطأ لا يقع فيه صغار طلبة العلم، بل كل مسلم عارف بدينه، وهو اتهام النيات والمقاصد التي يعلم المسلمون جميعاً أنها من شأن الله وحده، وليست من شأن البشر.

رغم قسوة البيان وشدته فقد كان نافعاً لمشروعنا، ذلك لأن إعلان البيان دعا جميع الناس للسؤال عن هذه المذكرة، ولم يكن معظمهم عرف عنها شيئاً من قبل وبصراحة كان بيان الهيئة فرصة تاريخية لنا لنشر المذكرة بشجاعة وبدون تردد حيث نشرناها علناً حتى تتعرف الأمة على حقيقة المذكرة، وتقارن ما فيها من علم وتأصيل شرعي وعلمي وواقعي عميق مع بيان الهيئة الذي لم يكن ليختلف عن البيانات الأمنية الصادرة في الدول البوليسية.

كان توزيع المذكرة ونشرها على نطاق واسع هو الخطوة الأولى في الرد على ذلك البيان،ولقد كان ترتيب المذكرة على الشكل التالي.

رسالة في مقدمة المذكرة للشيخ عبدالعزيز بن باز يطلب منه فيها دراسة المذكرة ومراجعتها، ورفع ما يقره منها للملك، وبعدها خطاب تقديم للملك نفسه كتبت بأسلوب أدبي رائع ولطيف دفعاً للتهم بالإثارة والتحدي والتحريض، ثم بعد ذلك مقدمة عامة للمذكرة حول وجوب النصيحة وضرورة انتداب أمة من الناس لها، وقيامهم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيها كذلك تعريف عام بالمذكرة ومنهجها وطريقتها.

محتوى المذكرة

احتوت المذكرة على عشرة أبواب كل باب ينقسم إلى ثلاث أجزاء الأول مقدمة تأصيلية شرعية حول القضية أوالباب أوالموضوع المطروح، والثاني عرض للواقع الحالي ومواقع الخلل فيه، والثالث اقتراح لطريقة الإصلاح بشكل تفصيلي.

ولقد تضمنت الأبواب العناوين التالية.

الباب الأول: تحدث عن العلماء ودورهم في الحياة العامة، تحدثت فيه المذكرة عن ضرورة استقلالية العلماء وتشجيعهم على قول الحق ونقاشه في حوارات معلنة، وضرورة إيجاد ترتيب مناسب لتفعيل دور العلماء جميعاً وليس المعنيين منهم فقط.

الباب الثاني: تحدث عن أنظمة الدولة ولوائحها وكشف بالتفصيل والأمثلة العملية أن منهجية الأنظمة واللوائح نفسها قائمة على أساس علماني، وليس على أساس شرعي، فضلاً عن وجود عدد هائل من الأنظمة واللوائح المخالفة والتي تعتبر في حقيقة الأمر من علامات الخروج عن الشريعة.

الباب الثالث: تحدث عن القضاء بإسهاب وعرض الوضع المخجل والمؤسف للقضاء وكونه مجرد فرع من فروع وزارة الداخلية وطرح في هذا الباب اقتراحات تفصيلية لحل مشكلة القضاء وضرورة استقلاليته وتقوية دوره في الحياة العامة.

الباب الرابع: تحدث عن حقوق العباد، وطرح تأصيلاً شرعياً دقيقاً لمفهوم حقوق الإنسان في الإسلام ، ثم استعرض الانتهاكات الضخمة لهذه الحقوق، وعرض بعد ذلك الطريقة المثلى لتحقيق العدل وإيصال الحقوق، وكان من بين الاقتراحات انشاء مؤسسة مستقلة من العلماء والقضاة والأعيان تحتسب على الدولة في قضية حقوق الانسان.

الباب الخامس: حول الوضع الاقتصادي عرض فيه وضع الاقتصاد في المملكة، والأخطاء الكبيرة التي تمارس في طريقة جمع المال وحفظه وصرفه واستثماره، والتفريط الهائل في مقدرات الأمة وإجبارالناس على الوسائل الحرام، ومنعهم من الوسائل الحلال، وعرض في الباب برنامج تفصيلي للحل يتضمن حل مشاكل الاقتصاد على مستوى الدولة والميزانية وعلى مستوى الصرف التفصيلي على أفراد الأمة.

الباب السادس: حول الوضع الاجتماعي عرض فيه مظاهر الظلم الاجتماعي والتفرقة العنصرية وانهيار الأمن الاجتماعي، وطرح فيه برنامج لحل كل تلك المشاكل.

الباب السابع: حول وضع الجيش والقوات المسلحة، وكيف أن استراتيجية الدفاع في بلادنا مبنية على الاعتماد على الكافر، وكيف خسرت الدولة مليارات الدولارات على عقود وهمية، وكيف ورط بعض المسؤولين في وزارة الدفاع الدولة وجعلوها مكشوفة في الأزمات، وطالبت المذكرة في هذا الباب بإعداد جيش قوي لا يقل تعداده عن نصف مليون، وضرورة تربية الشعب تربية عسكرية، كما طالبت المذكرة بمحاسبة كل المسؤولين عن انكشاف الجيش في الأزمة ومساءلتهم عن عشرات ومئات المليارات المصروفة عليه، وكان ذلك من أشد ما أغاظ النظام.

الباب الثامن: حول الوضع الإداري وانتشار المحسوبية والواسطية والفساد الإداري وضياع حقوق الناس بسبب النظام المتخلف والروتين، وطرح في الباب برنامج تفصيلي عن كيفية التخلص من هذه الأساليب المتخلفة والغش والرشوة والمحسوبية.

الباب التاسع: حول الأعلام جاء فيه استعراض طويل لأوضاع الإعلام المنحطة والتي تتوجه لخدمة أفراد معدودين، وتساهم في تخريب الأخلاق والمثل والقيم، وتحرم الأمة من الكلمة الصادقة والعلم النافع والخبر الصحيح، وطرح في الباب كذلك مشروع تفصيلي لمراجعة وضع الإعلام وإعادة تأسيسه على أساس إسلامي وبطريقة حضارية.

الباب العاشر: حول السياسة الخارجية والتي وصفت بأنها سياسة تخدم أعداء الإسلام، وتعمل ضد الدعاة والمؤسسات والحركات الإسلامية، وتدعم كل قوى الشر والطغيان، وتراعي الحكام على حساب الشعوب، وتتعامل مع الأحداث على أساس مؤقت دون استراتيجية واضحة، كما تحدث الباب عن الأوضاع المنحطة والمخجلة للسفارات السعودية والتي تحولت إلى مظاهر عار وشنار لأبناء المملكة، وطرح في الباب برنامج كامل لإصلاح السياسة الخارجية وإعادة تأسيسها ووضعها على أسس استراتيجية واضحة.

المذكرة الوثيقة

لقد كان الحديث عن كل قضية في تلك المذكرة حديث المختصين، وكان كل باب بمثابة كتاب مستقل في التأصيل الشرعي للقضية المطروحة، ولقد شهد كثير من المفكرين والعلماء المسلمين بأنه لم يكتب مثل هذا التأصيل العميق والراقي من قبل، بل لقد كانت المذكرة بمثابة برنامج سياسي تفصيلي للإصلاح الشامل، وهذه في الحقيقة هي القضية الهامة، والتي كنا بحاجة لها بإلحاح، ذلك لأن كثيراً من أعداء الدعوة والمتربصين بالعلماء والرموز الإسلامية لا يفتأون يرددون أن الإسلاميين لا يحسنون إلا إطلاق الشعارات، والمناداة بالتغيير دون برنامج أو مشروع مكتوب. وجاءت المذكرة لتؤكد عدة حقائق في الرد علي تلك الدعاوى تقضي عليها، لقد قدمت المذكرة بشكل جرئ وصريح لأعلى جهة في الدولة وهي الملك، وهذا ما لا يمكن أن يقوم به العلمانيون والليبراليون، ولقد تصدى للقضية، وتبناها كبار قيادات الصحوة من العلماء والمفكرين وأساتذة الجامعات، ولقد كان محتوى المذكرة عرضاً عملياً وواقعياً لطريقة الإصلاح على أساس إسلامي رصين، وتأكيداً لذلك فقد تقدم كل باب ذلك التأصيل الشرعي الراسخ، وسعياً لإتمام الجانب الخارجي والمظهري، فقد قدمت المذكرة مطبوعة طباعة جيدة ومرتبة ومخرجة إخراجاً ممتازاً، حتى يكاد المرء ألا يجد عليها مدخلاً.

الرد الثلاثي

نعم لقد كان مجرد توزيع المذكرة ونشرها كافياً للرد على بيان الهيئة، لكننا أردنا أن يكون هناك رد خاص على هيئة كبار العلماء نفسها وموجه لها

بشكل مباشر، ولأجل ذلك فقد أعد كبار طلبة العلم الذين ساهموا في كتابة المذكرة رداً خاصاً من صفحتين، وصيغ بعناية وكتب بشكل مركز، ثم وقع عليه ثلاثة من كبار المشايخ هم الشيخ حمود العقلا والشيخ عبدالله المسعري والشيخ عبدالله بن جبرين، وسلم الخطاب لأعضاء هيئة كبارالعلماء وانتشر بعد ذلك بين أيدي الناس وكان له أثر قوي خاصة بين صفوف المثقفين .

المذكرة الحجة

لم تكن المذكرة مجرد نصيحة تفصيلية تقدم للحكام، بل كانت في الحقيقة حجة بكل معنى الكلمة حجة على الحكام وحجة على العلماء وحجة على كل سدنة النظام وحاشيته وبطانته، ولم يعد لأحد فرصة للإعتذار بأنه لا يعرف الواقع، ولا يعرف أين الخلل، وكيف يكون الحل، ولهذا السبب كانت المذكرة محرجة للعلماء الرسميين، ذلك لأنها بتأصيلها الشرعي وعرضها الصادق والتفصيلي للواقع وطرحها العملي الواقعي للإصلاح بطريقة شرعية وضعتهم في خانة ضيقة فعلاً، ذلك لأن المذكرة جعلتهم إما جهلة بالشرع نفسه أو أنهم في معزل عن الواقع أو أنهم عالمون بالشرع وعالمون بالواقع، لكنهم راضون به ومدافعون عنه وقابلون لأن يكونوا جزءاً منه، كل تلك الاحتمالات تجعلهم غير أهل لأن يكونوا قيادات شرعية تتصدى للفتوى والإرشاد والتوجيه في المجتمع، فكيف تتحقق القيادة الشرعية في الجاهل بالشرع نفسه، وكيف تتحقق القيادة الشرعية في الغائب عن الواقع الذي لا يعلم شيئاً عن الأحداث والناس والمجتمع والدولة، بل كيف تتحقق القيادة فيمن لا يؤتمن على تلك المسؤولية، وهو على علم بالواقع السيئ والمنكرات العظيمة، ويرضى أن يكون مع ذلك جزءاً من النظام ولبنة في الكيان غير الشرعي، بل الكيان المحارب للشرع كما هو مضمون المذكرة غير المباشر.

المشروع الأهم

لقد كان مشروع المذكرة حقيقة من أهم مشاريع الصحوة وحق لمسيرة الصحوة في جزيرة العرب أن تفتخر به، ونحسب أن إعداد المذكرة وتقديمها، ثم نشرها أراح روّاد العمل الإسلامي في المملكة من أزمة عاشوها زمناً، وهي رميهم بتهمة التخلف والجمود ورفض التطور، بل لقد أغلقت المذكرة الباب أمام أولئك الذين يحاولون الربط بين ممارسات الحكام وحلفاءهم من علماءالسلاطين وبين الإسلام نفسه، واعتبار الإسلام سببا للفساد الإداري والمالي وانتشار الظلم والتسلط وعموم بلوى الرشوة والواسطة والمحسوبية.

ونستطيع القول من منظار فئة الصفوة المثقفة والفاعلة في المجتمع أن هذا الجدل قد حسم، خاصة حين كشفت المذكرة الفرق بين علماءالسلطان الذين يزينون له الشر، ويبررون له الجريمة ويلبسونها لباس الشرع، ويصدرون من أجله البيان تلو البيان بالصيغة التي يريد، وبين علماء الأمة الذين أعملوا ذهنهم وفكرهم واجتهدوا حتى أعدوا تلك النصيحة الراقية، وقدموها بأسمائهم وإمضاءاتهم بكل جرأة وإقدام.

مرة أخرى نقول ما قلناه بعد خطاب العلماء أو خطاب المطالب الذي لم ينفذ منه النظام مطلباً واحداً، إن النظام لم يكن ليأخذ المذكرة مأخذ النصيحة ويشرع بتنفيذ ما جاء فيها كونه هو المطابق للشرع الذي يدعي الالتزام به، ذلك لأننا نعلم أن أساطين النظام والمتنفذين فيه أبعد ما يكونون عن الرغبة في تحكيم الشرع، وكل همهم أن يزدادوا سلطة وجبروتاً، ويزيلوا كل من يزعجهم ويؤرق مضاجعهم عن طريقهم، ولقد أثبتت المذكرة أن النظام كذاب، بما تعنيه هذه الكلمة، نظام غاش لرعيته، فلو كان النظام صادقاً فهذا هو الشرع بين يديه يصلح من خلاله، ونحسب أن تبيان كذب النظام مكسب استراتيجي كبير وإحراج كامل له ولأساطينه.

لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية

هدأت زوبعة مذكرة النصيحة، وقل الحديث عنها في أوساط الناس العاديين، ولكن استمر الاهتمام بها في أوساط المثقفين والسياسيين، وخاصة خارج المملكة وتحولت بعد ذلك إلى وثيقة سياسية تاريخية هامة.

التوطئة

كان أهم حدث بعد المذكرة هو إنشاء لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية، وفي حين أعلنت اللجنة في ذو القعدة من عام 1413هـ مايو 1993م، فقد بدأت الأحداث التي وطأت لها منذ رجب في ذلك العام ديسمبر 1992، ورغم أن الإعلان عن لجنة الدفاع جاء استجابة لتطورات معينة إلا أن الإعداد الفكري والفلسفي لها بدأ قبل ذلك بكثير.

كان رواد الإصلاح يفكرون منذ بداية المشروع الإصلاحي بقضيتين رئيسيتين اعتبروهما وعاءً لبقية القضايا:

الأولى: هي إيصال رسالة الإصلاح بتفاصيلها إلى الأمة وبالطريقة الفعالة.

الثانية: هي إنشاء المؤسسات التي تحتسب على الشعب والحكام من أجل تنفيذ تلك الرسالة.

ولقد تحقق تنفيذ القضية الأولى بصورة مرضية من خلال خطاب العلماء ومذكرة النصيحة وشريط المدفع العملاق، وكان لابد من الانتقال إلى القضية الأخرى ذات الطبيعة العملية والمعقدة، لكن رواد الإصلاح كانوا على دراية بخطورة مثل هذه الخطوة، ليس بسبب رفض النظام الحاكم لها، ولكن لأن التركيبة العقلية والنفسية للناس والعلماء والقيادات الاجتماعية لا تقبل مفهوم أي مؤسسة مستقلة عن النظام، ومع الأسف الشديد فهي مهيئة نفسيا لأن تعتبر أي تجمع من هذا القبيل بمثابة فئة من الخوارج، أو حزب من دعاة الفرقة وتشتت المجتمع، ولقد نجحت سياسة آل سعود في تحويل هذه الأفكار إلى مشاعر وعقائد في أذهان الناس وعواطفهم ونفوسهم.

لقد أدى إدراك رواد الإصلاح لهذه الحقيقة، حقيقة عدم تهيؤ المجتمع لعمل جماعي شامل إلى أمرين، الأول: تأجيل طرح مثل هذه القضية إلى ما بعد التوعية الفكرية اللازمة، وهو ما حصل بعد خطاب العلماء ومذكرة النصيحة، والثاني: اختيار المظلة المناسبة لهذا المفهوم، وتقديمها للناس بإطار مقبول لا يجد عليه أي "متعالم" مدخلا من المداخل الشرعية.

وعاء مناسب

كان أنسب وعاء تنفذ فيه تلك الفكرة هو التعاون هو من أجل نصرة المظلوم، ذلك لأن هذا النوع من التعاون بالذات قد تميز بإذن شرعي "ديني" مفتوح لا يمكن الاعتراض عليه، وذلك في نصوص شرعية ثابتة دلت على أنه لا يفتقر إلى استئذان أو ترخيص من الحاكم، ولذلك لا يملك العلماء الرسميون والقضاة وغيرهم من أعضاء المؤسسة الدينية الرسمية، لا يملكون أن يعترضوا على مثل هذا الأمر لوضوح النصوص الشرعية فيه.

من جهة أخرى فإن التعاون لرفع الظلم مطلب شعبي كبير، ذلك لأن معظم أبناء الشعب في المملكة يتعرضون لأشكال مختلفة من الظلم، سواء من الحكام أو من المتنفذين المستفيدين من سلطة الدولة، وأبناء الشعب هؤلاء عاجزون عن أن ينتصفوا ممن يظلمهم أو يستعيدوا حقوقهم بسبب سيطرة المتنفذين على القضاء.

شعار عالمي

من العوامل الأخرى التي شجعت على هذا المنبر أن العالَم كله، وخاصة العالم الغربي، كان يرفع راية الدفاع عن حقوق الإنسان، بل لقد اعتبرت أمريكا عام 1993 ميلادية عام حقوق الانسان، وفي اختيار هذه الراية من قبل الحركة إحراج قوي للعالم الغربي، لأن الغرب مستعد أن يلصق تهمة التطرف والإرهاب بأي تجمع إسلامي، ويعتبر ذلك مبرراً لدعم الأنظمة سياسيا وإعلاميا ضد هذه التجمعات بشكل علني، لكنه سيُحرج إذا كانت المظلة حول حقوق الإنسان، ولذلك فقد كانت فكرة رفع المظالم والدفاع عن الحقوق فكرة رائدة في تحييد الغرب بآلته السياسية والإعلامية الجبارة.

كان ذلك هو التاصيل العلمي والشرعي الذي انبثقت من خلاله لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية، ورغم وضوح الفكرة في أذهان عدد كبير من رواد الإصلاح، فقد كان الجميع في انتظار الظروف المواتية لتنفيذ تلك الفكرة.

اعتقال الدبيان

كان أول باعث مباشر على السعي جديا وبشكل عملي لتأسيس اللجنة هو في رجب /شعبان من عام 1413هـ ديسمبر 1992، أي بعد تسليم مذكرة النصيحة بسبعة أشهر، وذلك حين اعتقل الشيخ ابراهيم الدبيان بطريقة همجية غير مألوفة لدى أهل الجزيرة، فلقد كان من التقاليد التي استمر آل سعود يراعونها تجنب مواجهة العلماء حتى لو كانوا من غير العلماء الرسميين، وكان مجرد خبر اعتقال عالم حدث غريب فكيف باعتقال خشن توضع فيه أيدي المعتقل وسيقانه "بالكلبشات" على مرأى من الناس وفي وسط النهار، ثم يداهم المنزل ويفتش دون استئذان أو أدب أو تلطف، كل هذه الممارسات لم تكن معهودة مع العلماء في المملكة قبل ذلك، ولقد انتشر خبر اعتقال الشيخ الدبيان بسرعة فائقة في جميع أنحاء المملكة، ووصلنا الخبر نحن في الرياض بعد أن انصرفنا من صلاة الجمعة، وكنّا قد جلسنا لتجاذب أطراف الحديث في منزل لأحد الأخوة من لجنة الجامعة طيبة الذكر.

وفور سماعنا للنبأ حّولنا اللقاء الذي كان حول الشاي إلى اجتماع رسمي للجنة لمناقشة هذا الحدث الهام، وتم من خلال هذا اللقاء الإعداد للقاء موسع في منزل أحد المشائخ بين عدد من العلماء وأساتذة الجامعة، ووافق المدعوون لحضور ذلك اللقاء الموسع في منزل الشيخ حمد الصليفيح، حيث حضر هناك ما يقارب الأربعين من العلماء والدعاة وأساتذة الجامعة.-وكان ذلك في حدود رجب 1413هـ 1992م.

رد فعل كلاسيكي

في ذلك اللقاء طرحت قضية اعتقال الدبيان، وكان هناك وجهتي نظر وجهة النظر الأولى تحبذ التعامل مع اعتقال الدبيان باعتبارها حادثة منعزلة، والسعي لإخراج الشيخ وإقفال القضية، وأعد المتحمسون لهذا الرأي خطابا يطالبون فيه بإخراج الشيخ فورا ورد اعتباره، أما وجهة النظر الأخرى فكانت لأولئك الذين اعتبروا اعتقال الشيخ فرصة مواتية لطرح قضية التجمع الساعي لرفع الظلم والدفاع عن المظلومين، واقترح هؤلاء تكليف شخص أو مجموعة بإعداد ورقة عمل عن كيفية إنشاء هذه المجموعة، وتكفل أحد الحاضرين فعلا بتلك المهمة، وكان هذا الرأي هو الغالب مع أن وجهتي النظر ليستا متناقضتين.

خط آخر

وفيما تم هذا اللقاء بذلك الأسلوب الجماعي وشبه المعلن، فلقد كان هناك خط آخر اتخذ طابعا أكثر بساطة وسهولة، لكنه أضمن أثرا وأكثر فرصة في النجاح، وتبنى ذلك الخط عدد قليل من الأفراد، هم حقيقةً نفس المجموعة الصغيرة التي نفذت مشروع خطاب المطالب ومذكرة النصيحة.

كانت الطريقة التي اختارتها هذه المجموعة تسهيل إنجاح المشروع في تحمل عبء جانب الاعداد والكتابة والترتيب ومواجهة الجميع بالأمر الواقع بطريقة مشابهة للتجربتين السابقتين، وتبين لدى تلك المجموعة أن محور القضية هو في كيفية صياغة وثيقة تكون معبرة عن مهمة ذلك التجمع الساعي لرفع الظلم، فإذا ما وفقت في صياغة تلك الوثيقة بالمعنى الشرعي والسياسي، فإنه يمكن إقناع عدد من الرموز الهامة والمؤثرة في تبني تلك الوثيقة واعتبار أنفسهم من الداعين إليها والمتكفلين بمسؤولية ما جاء فيها. ورأت تلك المجموعة أن هذا الأسلوب أكثر واقعية وأدعى للنجاح من أسلوب الاجتماعات المتتالية لأعداد كبيرة وطرح أوراق عمل، هذا مع أن كلا المسارين لا يتعارض مع الآخر.

وثيقة التأسيس

أُعدت الوثيقة بعناية فائقة واستعين حال إعدادها بعدد من الأخوة المختصين، ولم يكن لتلك الوثيقة في البداية عنوان ولا هوامش، بل اكتُفي فيها بالنص المجرد، وكانت الوثيقة التي أصبحت فيما بعد البيان التأسيسي للجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية مجرد تأكيد لوجوب رفع الظلم بالطرق الشرعية، وجاء فيها حث من يريد لمظلمته أن ترفع أن يكتب أو يتصل أو يقابل الموقعين على تلك الوثيقة، وحين تم الانتهاء من الصياغة وقع الاختيار على ستة أشخاص يفاتحون بهذا المشروع وطبعت تلك الأسماء مع الوثيقة، وبدأت فورا عملية إقناع أولئك الستة بالتوقيع.

وافق أربعة من الستة على التوقيع دون تردد هم الشيخ عبدالله المسعري والشيخ عبدالله التويجري والشيخ عبدالله بن جبرين والشيخ سليمان الرشودي، وبقي اثنان لم يمكن مقابلتهما لأنهما من خارج الرياض، وأجل مشروع مفاتحتهما إلى حين مقابلتهما في مكة حيث يقضون معظم رمضان هناك.

الدبيان حر طليق

وفيما كان الجميع متحمسا لاستمرار العمل في كلا المسارين، المسار العام المفتوح من خلال لقاء الشيخ الصليفيح، والخاص السري من خلال الوثيقة المذكورة، أطلق سراح الشيخ الدبيان وتناقل الجميع خبر إطلاق سراحه.

حين علم الذين تنادوا للاجتماع الثاني بإطلاق سراح الشيخ قل حماسهم للفكرة، وتحول الاجتماع الذي كان يجب أن يكون نقطة انطلاق في مشروع حقوق الانسان إلى مجرد لقاء عابر لم يتمكن المتحمسون له من السعي لاستمراره، وتأثر المسار الثاني كذلك حيث تردد الشيخان الذين عرضت عليهما الوثيقة في القبول بتوقيعها فجمدت الفكرة مؤقتا.

الدبيان مرة أخرى

مضى رمضان من ذلك العام 1413 دون حوادث هامة، ولكن لم ينتصف شوال إلا واعتقل الشيخ الدبيان مرة أخرى فكان ذلك داعيا قويا لتجديد كلا المسارين في المسار العام، ثم ترتيب لقاء آخر في منزل الاستاذ عبدالله الحامد شارك فيه معظم الذين شاركوا في اللقاء الأول، وكان ذلك في أواخر شوال من نفس العام أبريل 1992، وفي ذلك اللقاء تم الاتفاق على إنشاء مجموعة باسم "لجنة النصرة والحقوق"، وكلف اثنان من الحاضرين بإعداد لائحة تفصيلية لتلك اللجنة واقتراح الشكل المناسب لتبني مجموعة معينة لهذا العمل، وانفض الاجتماع على هذا الأساس من أجل اللقاء خلال أسبوع.

ستة توقيعات

في المسار الخاص أعيد النظر في الاسمين الذين تردد أصحابهما في المشاركة واستبدلا باسمين آخرين هما الشيخ حمد الصليفيح والاستاذ عبدالله الحامد، الذين لم يترددا في التوقيع فور عرض الوثيقة عليهما، فاجتمع في تلك الوثيقة ستة توقيعات كاملة، وتم ذلك بعد الاجتماع الأخير الذي تقرر فيه إعداد لائحة "للجنة النصرة والحقوق".

المساران يجتمعان

حضر الجميع إلى اللقاء الثاني في منزل الاستاذ عبدالله الحامد في مطلع ذي القعدة 1413 مايو 1993 على أمل مناقشة لائحة ‘‘لجنة النصرة والحقوق’’، وحضرت معهم المجموعة التي أعدت وثيقة الأسماء الستة، وبعد أن عرضت اللائحة المقترحة للجنة النصرة والحقوق، وبدأ نقاش كيفية تبنيها في مجموعة بأسماء معلنة كانت الفرصة مواتية لعرض الوثيقة الثانية كإثبات بأن هناك ستة من القياديين قد وقعوا فعلا على تبني هذا المشروع علنا، ولم يكن هناك خيار للمتجتمعين إلا تأكيد تلك الخطوة والاعجاب بشجاعة أولئك الستة، واعتبار ذلك الاجتماع رفداً ودعما لمشروع تلك الوثيقة، وانفض الاجتماع على أساس تأييد نشر تلك الوثيقة.

العنوان

لم تكن الوثيقة صالحة للنشر دون اختيار اسم لتلك المؤسسة أو المجموعة ووضعه في رأس الوثيقة، كما لم يكن ممكنا طرح مفهوم رفع المظالم دون كتابة عناوين أو هواتف الذين تبنوا المشروع، ووافق عدد من الموقعين على وضع هواتفهم وعناوينهم، وبعد استشارات عريضة وتفكير ملي وقع الاختيار على عبارة ‘‘لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية’’ وكان اختيار كل كلمة في هذه العبارة مقصودا، ولعله كان اختيارا موفقا.

الإعلان

تم التنسيق مع إحدى المنظمات الحقوقية في لندن من أجل توزيع البيان على وكالات الأنباء ووسائل الإعلام، وأرسل لها البيان، وقد أضيف له اسم اللجنة والهواتف والعناوين، ووزع البيان فعلا بعد ذلك على وسائل الإعلام، حيث انفجرت التغطية إعلاميا في قصتها المعروفة.

هذه المرة لم يعتمد إعلان اللجنة على الجهد البشري الفردي من خلال نسخ البيان وتصويره وتوزيعه، بل جاء الإعلان بطريقة غاية في الفعالية، وهي الإعلام العالمي نفسه وفي مقدمته هيئة الإذاعة البريطانية، حيث بادرت تلك الإذاعة بعد استلامها الخبر بالإتصال بالهاتف الوارد في البيان، هاتف أمين اللجنة الشيخ عبدالله المسعري، وتأكد لدى هيئة الإذاعة البريطانية أن هذا البيان حقيقة واقعة، وأن الذي رد على الهاتف هو أمين اللجنة، وعندها انتقلت الإذاعة للخطوة التالية، وهي إجراء مقابلة حقيقية مع الشيخ بصوته هو، ولكن الشيخ لم يكن ممن يتقن الإنجليزية، فإحالهم إلى ابنه الدكتور مُحَمَّد المسعري حيث تمت المقابلة مع الدكتور مُحَمَّد بصفته متحدثا باسم والده في ذلك اليوم، وكانت المقابلة باللغة الإنجليزية وترجمت إلى اللغة العربية في إذاعة لندن العربية.

اجتماع رسمي

بعد ذلك دعا الشيخ عبدالله المسعري إلى اجتماع لأعضاء اللجنة الستة، وشرح لهم قصة مشاركة الدكتور مُحَمَّد في اللقاء، ووافق الجميع على اقتراح بتعيينه ناطقا رسميا للجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية.

بعد حديث إذاعة لندن تتابعت الأخبار بكثافة في كافة الإذاعات، وخاصة الإذاعات التي يتابعها أهل الجزيرة والخليج مثل مونتي كارلو وصوت أمريكا، وأصبحت القضية حديث الشارع في المملكة والخليج بل والعالم العربي كله، وانهالت بعد ذلك رسائل التأييد شفويا وكتابيا من المؤيدين وخاصة من داخل المملكة.

آل سعود.. صدمة

صدم آل سعود من جهتهم بالحدث، ولم يخطر ببالهم أن يقفز الإسلاميون هذه القفزة، ويقتحموا السياسة من خلال الإعلام العالمي بتلك الفعالية، كانت ردود الفعل الأولى من قبل النظام هي استدعاء أعضاء اللجنة الستة والناطق الرسمي معهم إلى مكتب الأمير سلمان أمير الرياض، وفي البداية حاول الأمير سلمان إرهابهم وتخويفهم وإشعارهم أن عملهم هذا يترتب عليه أمور خطيرة فلم يتغير موقفهم، وعندها قال الأمير سلمان: ''إنه لم يستدعهم للحوار ولا للنقاش، بل استدعاهم من أجل أن يوقعوا على محضر بأنهم قد أسسوا تلك اللجنة فعلا، وأن نسبة ما أذيع في وسائل الإعلام وما نشر في الأوراق لهم صحيحة وليست تزويرا أو تقولا عليهم''، ووقع الجميع على محضر بذلك بمن فيهم الشيخ عبدالله الجبرين، وبعد التوقيع على المحضر طلب منهم الأمير سلمان الانصراف.

بعد مرور عدة أيام أعيد إحياء المسار العام، فاجتمعت المجموعة الكبيرة وأعلن المجتمعون تأييدهم التام لمشروع اللجنة، وأعدوا برنامجا لشرح مشروع اللجنة للعلماء ورموز المجتمع منعا لسوء الفهم الذي حاول النظام بثه بما يستطيع.

رد الفعل الرسمي على لجنة الدفاع

كانت أول عملية رد فعل معلنة من قبل النظام ضد حدث اللجنة هي تكليف هيئة كبار العلماء بإصدار بيان تجاه القضية، ويبدو أن النظام ما إن أفاق من صدمته بعد هذا الحدث الهام حتى قرر جمع العلماء وإلزامهم بإصدار موقف يعطي الشرعية لما ستتخذه الدولة من إجراءات ضد اللجنة وضد أعضاءها وداعميها، كان الجميع في انتظار الخطوة حيث توقع كل من ساهم في إعداد مشروع اللجنة ذلك، لأن اللجوء إلى هيئة كبار العلماء أصبح من ردود الفعل الروتينية لدى النظام، فلم يمض وقت طويل على لجوء النظام مرتين إلى الهيئة أولهما بعد خطاب المطالب وثانيهما بعد مذكرة النصيحة، وهذا التصرف من قبل النظام لم يكن مجرد تكرار لتصرفه السابق، بل كان بمثابة تأمين غطاء شرعي أو ديني لاتخاذ إجراءات قمعية ضد اللجنة وضد مؤسسيها، وهذا ما أثبتته الأحداث بعد ذلك حيث شكل ذلك البيان إعلاناً لمرحلة جديدة سادها البطش

والقمع والتنكيل بعد هذا الغطاء الشرعي.

بيان الهيئة

إرهاصات إصدار البيان لم تكن مجرد استقراء لرد فعل النظام، بل لقد تسربت أخبار استدعاء العلماء لاجتماع عاجل منذ الأسبوع الأول لإعلان خبر اللجنة، بل تأكد لدى المجموعة المؤسسة والمتابعة أن العلماء قد اجتمعوا فعلاً في الطائف، وأنهم على وشك أن يصدروا بياناً في قضية اللجنة، وحاول الأخوة في تلك الفترة تصور كيف سيصدر ذلك البيان، ووجدوا صعوبة في أن يتخيلوا بياناً شرعياً يمكنه أن يقابل بيان اللجنة الذي أحكمت صياغته شرعياً، وأطلق كل لنفسه العنان في تصور صيغة موقف الهيئة.

وفي صبيحة يوم الاثنين العشرين من ذي القعدة 1413هـ الموافق الحادي عشر من مايو 1993م أذاعت وسائل الإعلام السعودية ذلك البيان المنتظر، وبالطبع فقد احتوى البيان على العبارات التي أرادها النظام، وجاء خالياً من أي صياغة شرعية، لقد ادعى البيان أن انشاء اللجنة غير مشروع، ولا يجوز قيام أي كيان مهما كان إلا بإذن ولي الأمر، وأن الذين أقدموا على ذلك يستحقون العقاب، وكالعادة فقد صدر البيان بالإجماع أي بإجماع أعضاء هيئة كبار العلماء، ولم يتخلف عن التوقيع أحد، بعض من الإخوة استغربوا صدور البيان بالإجماع، وذلك لأن الهيئة كانت قد طُعّمت بشخصيات كان يُظنُّ أنها على درجة من الاستقلالية لكن الظن خاب فيهم.

اضطراب

بعد بيان الهيئة تتابعت الأحداث بشكل دراماتيكي فيه نَفَس المواجهة والإثارة، وكان أول إجراء تعسفي يتخذ بعد هذا الضوء الأخضر ضد أعضاء اللجنة هو إصدار أمر ملكي بفصل كل من د. مُحَمَّد المسعري ود. حمد الصليفيح ود. عبد الله التويجري ود. عبد الله الحامد من وظائفهم وإقفال مكاتب المحاماة لكل من الشيخ عبد الله المسعري والشيخ سليمان الرشودي.

وبطبيعة الحال لم تكن هذه القرارات ذات قيمة تذكر عند الذين اتُّخِذ بحقهم الإجراء من الناحية المالية أو الناحية الحياتية، رغم أن النظام اعتقد أن ذلك سيؤلمهم، لكن القرار كان له قيمة معنوية حيث ارتفع رصيد هذه المجموعة شعبياً وازداد التأييد لها، ونظراً لأن هذا الأمر الملكي وقبله بيان هيئة كبار العلماء نُشر باستفاضة في وسائل الإعلام الرسمية، فقد كان بمثابة تسخير لتلك الوسائل لصالح مشروع اللجنة.

اجتماعات اللجنة والمؤيدين لها لم تتوقف حيث ناقش المجتمعون قرار هيئة كبار العلماء، وقرروا التريث في اتخاذ موقف معلن منه، وساد اعتقاد لدى معظم المجتمعين أن صياغة بيان الهيئة من الركاكة والهشاشة بحيث لم يكن لينطلي على الفرد العادي، ولا يدعو للاستعجال بالرد عليه، ومن الطرائف أن بعض الشباب زاروا الشيخ ابن عثيمين بعد صدور بيان الهيئة، واستحلفوه بالله إن كان على بيان تأسيس اللجنة أي مدخل شرعي، فأقر بأنه لم يستطع الوقوع على أي إشكال شرعي فيه، ومع ذلك فقد برّر مشاركته في التوقيع على بيان هيئة كبار العلماء!، تناقض غير مقبول.

السفارة الأمريكية

خلال فورة الحدث وبعد أقل من يومين من صدور بيان الهيئة حصل ما يمكن اعتباره صباً للنفط على النار، وهو قيام شخصيتين من السفارة الأمريكية بزيارة الشيخ عبد الله المسعري في منزله ومقابلة بعض مؤيدي اللجنة هناك، لقد كان هذا الحدث مؤلماً جداً للنظام الذي يشعر بالغيرة العظيمة والخوف والهلع إن اكتشفت أمريكا أن هناك قوى اجتماعية قد يكون لها شأن في المستقبل، لقد انتشر خبر هذا اللقاء وأعلن الخبر في الإذاعات الغربية فجن جنون آل سعود، من الذي عمل ذلك وكيف؟، وقبل أن نبسط تفاصيل رد فعل النظام على ذلك لا بد من بيان حقيقة هذه المقابلة التي شوهت بعض الجهات خبرها، ورويت وكأنها زيارة من اللجنة وأعضاء اللجنة للسفارة الأمريكية.

الرواية الصحيحة

القصة في حقيقتها كالتالي: اتصل اثنان من العاملين في السفارة الأمريكية بالرياض بالشيخ عبد الله المسعري، وعرفا نفسيهما بأنهما يمثلان لجنة حقوق الإنسان في الكونجرس الأمريكي، وأنه ليس لهما علاقة بالحكومة الأمريكية نفسها، وطلبا منه السماح لهما بزيارته والوقوف على حقيقة

الأمر، وكان رد الشيخ مؤدباً، أن أي ضيف يصل إلى المنزل فلا يمكن رده، ففهما أن الزيارة مقبولة، وحين حضرا إلى منزل الشيخ عبد الله المسعري بادر واتصل بمجموعة من الذين يحسنون الحديث بالانجليزية، وتم في منزل الشيخ لقاء دار معظمه حول انتقاد أمريكا وازدواجيتها في تفسير مفهوم حقوق الإنسان، وانصرف هذان الشخصان بعد ذلك دون أي اتفاق أو تفاهم.

لم يصل خبر ذلك اللقاء إلى السلطات السعودية فوراً، بل تأخر عدة أيام، وخلال تلك الفترة استمرت اتصالات الإذاعات ووكالات الأنباء بالدكتور المسعري، وتتابعت التحليلات والمواقف في وسائل الإعلام، وعندها قامت السلطات باستدعاء محمد المسعري بعد يومين تقريباً من بيان هيئة كبار العلماء، وتم استجوابه من قبل رئيس المباحث العامة لمدة خمس ساعات طلب منه فيها أن يتوقف عن الحديث لوسائل الإعلام وإلا فسيعرض نفسه للعقاب، ورجع الدكتور محمد المسعري إلى منزله متأخراً تلك الليلة لا يدري ما الذي ينتظره بعد يومين.

اقتحام

وفي فجر يوم السبت الرابع والعشرين من ذي القعدة 1413هـ الموافق الخامس عشر من مايو 1993م داهمت قوات المباحث منزل الدكتور المسعري في عملية أشبه ما تكون باقتحام الكوماندوز، حيث فصلت خطوط الهاتف عن المنزل، وحوصر المنزل بعدة سيارات، وهجم عدد من المقتحمين على السائق وعلى أحد أبناء المسعري، ثم دخلوا على الدكتور المسعري في غرفة نومه، واقتادوه معصوب العينين إلى السجن.

تناقل الإخوة في جامعة الملك سعود خبر مداهمة منزل المسعري واعتقاله في صبيحة ذلك اليوم، وكانت المشاعر خليطاً من الغضب والترقب والخوف. ولم يكن معروفاً إن كان الباعث على اعتقال المسعري ورود الأخبار عن مقابلة الأمريكان أم هو خرقه للالتزام بعدم الحديث لوسائل الإعلام العالمية.

توتر

كان اليوم الذي اعتقل فيه المسعري مليئاً بالتوتر، حيث استدعي كل الذين حضروا اللقاء مع الأمريكان إلى وزارة الداخلية بمن فيهم الشيخ عبد الله المسعري، واستجوب الجميع حول ذلك اللقاء، ولكن لم يُعتقل سوى المسعري.

في نفس اليوم توجه وفد من ثلاثين استاذا جامعيا إلى إمارة الرياض لمقابلة سلمان بن عبد العزيز أمير الرياض، ودخلوا على الأمير بعد صلاة الظهر، وكانت مواجهة مشهورة، حيث هدد سلمان وأرغى وأزبد وتوعد مع أنه كان يخاطب مجموعة كلهم من حملة الدكتوراة وأساتذة الجامعة، وانفض لقاء سلمان معهم بالتهديد.

خلال هذه الفترة العاصفة كان قد زار الرياض وفد من علماء القصيم يزهو على خمس وعشرين من علماء القصيم، في مقدمتهم الشيخ حمود العقلا، ووصل الوفد للرياض قبيل بيان هيئة كبار العلماء، وشهد تلك التطورات الدراماتيكية بما فيها اعتقال المسعري، وحاول الوفد المشاركة في التعبير عن عدم الرضا بما يحصل، وطالب بمقابلة الملك، وكالعادة الملك لم يوافق على إعطاء أي موعد، فاكتفى الوفد بمقابلة الشيخ ابن باز وولي العهد، وقابلوا كذلك علماء ووجوه أهل الرياض معبرين عن غضبهم على النظام وعلى إجراءاته.

لم تقف الدراما بعد اعتقال المسعري، بل حصلت عدة تطورات ساهمت في إبقاء القضية ساخنة جداً، وأعطتها وقوداً إعلامياً فاعلاً.

نكسة

كان أهم تطور بعد اعتقال المسعري مما اعتبرناه أول نكسة يصاب بها المشروع، هو إعلان الشيخ عبدالله بن جبرين الانسحاب من اللجنة، وإصداره بياناً مربكاً يعبّر فيه عن أنه لا يذكر أنه وقّع على بيان اللجنة، وكان الشيخ سامحه الله قد تعرض للضغط الشديد فور صدور بيان هيئة كبار العلماء، حيث فُصل من منصبه في الإفتاء، وأخبر بأنه ممنوع من التدريس في حلقات العلم، وعليه أن يلزم بيته، وهُدد بأنه إن باشر التدريس فسيُعتقل فوراً، ثم قام سلمان بن عبد العزيز بإرسال عدد من الوفود من المتعاطفين مع النظام ومن المحسوبين على طلبة العلم إلى الشيخ لإقناعه بالانسحاب، وفي البداية كان قد رفض كلياً فكرة الانسحاب، ولكن التخويف وغسيل الدماغ لم يتوقف وتتابع زوار الشيخ من جنود سلمان محاولين إقناعه أنه إن انسحب، فسيعاد إلى دروسه ونشاطه العلمي والدعوي، ومازال به أحدهم وهو ابن عم له حتى أقنعه، وكان هذا

الشخص يتنقل بينه وبين الأمير سلمان في رحلات مكوكية في كل رحلة يرفض سلمان صيغة الانسحاب، ويطالب بتعديلها حتى تكون أكثر إهانة وإرباكاً وإرجافاً وتشكيكاً باللجنة، ونجح سلمان فعلاً، ووقّع الشيخ الجبرين في نهاية المطاف على تلك الصيغة المهينة، ونشرت في وسائل الإعلام في بداية ذي الحجة من نفس العام أي في الثالث والعشرين من مايو 1993م.

وكان خبر الضغط الذي تعرض له الشيخ قد تسرب إلينا قبل أن يعلن الانسحاب فقمنا بزيارته، وحاولنا ثنيه عن ذلك لكننا وجدناه في وضع لا يمكن به مواجهة ضغط أمثال آل سعود، ورغم أن الشيخ كتب في بيان الانسحاب أنه لا يذكر أنه قد وقّع، وأنه لا يعرف بعض الموقعين فإننا نشهد أننا حضرنا بشكل شخصي توقيعه، ولربما لم تسعفه ذاكرته حتى يتذكر ما حصل. وفي اعتقادنا أن الشيخ أخطأ من جهتين، كونه أولاً تخلى عن حق كان يجب أن يصبر ويتحمل من أجله، وكذلك كونه كتب تلك الصيغة المهينة المخجلة والمرجفة بالآخرين، رغم ذلك فقد رأينا أنه كان من الأصلح أن لايزج بالشيخ بن جبرين في هذا المشروع، الذي يحتاج إلى شخصية تختلف في طبيعتها وتماسكها عن شخصية مثل الشيخ ابن جبرين.

مداهمات

في تلك الأثناء وفيما كانت الرياض مشغولة باعتقال المسعري وبانسحاب ابن جبرين، تنامت إلينا أخبار قيام النظام بمداهمة مركز الشيخ سفر الحوالي في جدة وكذلك خبر تجميد الحسابات الخيرية للشيخ سلمان العودة، لعل النظام اعتقد أن اللجنة ونشاط الشيخ سلمان ونشاط الشيخ سفر نسيج واحد، فأصبح يخاف من كل شيئ فبادر بتلك العملية.

البيان الثاني

رغم سخونة الموقف وارتفاع شحنة التوتر وسريان موجة من الرعب في قلوب بعض الناس فإن الأخوة لم يتوقفوا عن الاجتماعات والاتصالات والحركة، حيث اجتمع الجميع مرة أخرى في بدايات شهر ذي الحجة، واتفقوا على كتابة بيان باسم اللجنة يرد على بيان هيئة كبار العلماء وينتقد إجراء اعتقال المسعري وابتزاز آخرين والضغط عليهم، وصدر البيان فعلاً بتوقيع خمسة من أعضاء اللجنة، حيث صدر بعد انسحاب الشيخ الجبرين وأرسل إلى لندن، ومنها إلى كل وسائل الإعلام، وبالمناسبة فلم يتوقف تدفق المعلومات عمّا يجري عن وسائل الإعلام، واستمر الإخوة في إيصال المعلومات إلى مؤسسة ليبرتي في لندن لبثها على وكالات الأنباء، وكانت كل تلك الأخبار ترد تباعاً في نشرات الأخبار العالمية.

تتابعت الاعتقالات بعد ذلك، واستمر التصعيد والمواجهة، حتى اجتمع في السجن عشرون أستاذاً جامعياً.

تداعيات تأسيس اللجنة

صدر البيان الثاني للجنة في الرابع من ذي الحجة الثالث من يونيو من نفس العام، وأرسل إلى الخارج، ووزع البيان من خلال مؤسسة ليبرتي على وكالات الأنباء ووسائل الإعلام.

شعور بالمواجهة

لكن الزخم العام لمسيرة العمل تحول من شعور بالوقوف خلف جهة شعبية مستقلة إلى شعور بالمواجهة بعد اعتقال المسعري ومداهمة مركز الشيخ سفر وتجميد حسابات الشيخ سلمان الخيرية، وزاد من هذا الشعور إقدام السلطات على مجموعة من الاعتقالات لبعض الشباب المتعاطف مع اللجنة من أنحاء مختلفة من المملكة، هذا التحول كان كفيلا بتغيير نوعية الدعم الذي حظي به مشروع اللجنة في أيامه الأولى، وتمثل ذلك في برقيات التأييد والرسائل والاتصالات الهاتفية، بل والزيارات والوفود من كل أنحاء المملكة إلى أعضاء اللجنة والمؤسسين، لكن ما إن بدأت موجة الاعتقالات وصدر بيان هيئة كبار العلماء، وأعلن انسحاب الشيخ ابن جبرين حتى تغيرت نوعية هذا الدعم إلى الأسلوب الحذر، وضاقت دائرة الداعمين إلى دائرة نوعية أقرب إلى تجمع الصفوة والشباب المتحمس منه إلى عامة الشعب وتياراته، وفي حين كنا نستطيع جمع أكبر عدد من الداعمين في المراحل الأولى لمشروع اللجنة بجرأة وسهولة وحماس، فقد أصبح جمع هؤلاء ينطوي على صعوبة ويستدعي حذرا أكثر بعد تحول الجو

إلى جو المواجهة، ولقد اضطررنا مرة أخرى إلى التركيز على العمل الداخلي بالمجموعة الصغيرة الفاعلة حتى لا يرتبط نجاح العمل بأعداد كبيرة غير مضمونة التأييد ولا سهلة الاجتماع والتفاهم.

رغم هذا التحول في زخم التأييد والتغيير في أسلوب العمل فقد استمرت دراما المواجهة والتغطية الإعلامية للقضية لعدة أشهر وصلت إلى قمتها عند اعتقال عدد كبير من أساتذة جامعة الملك سعود وعدد من أعضاء اللجنة وإيداعهم سجن الحائر المشهور، قبل أن يختفي هؤلاء الأساتذة في السجون حصلت عدة تطورات هامة لابد من التعريج عليها.

مؤتمر فيينا

من المصادفات التي أعطت المشروع دفعة إعلامية أن مؤتمرا دوليا لحقوق الإنسان قد عقد في فيينا بعد إعلان اللجنة بشهر تقريبا، وتبنت ليبرتي في لندن طرح قضية المملكة في المؤتمر، ولم تكن لدى مؤسسة ليبرتي معلومات كافية عن واقع حقوق الإنسان في المملكة فكان لابد من تزويدها بتقرير شامل عن ذلك، وفعلا عكفنا على إعداد تقرير طويل عن هذا الموضوع، وكتب التقرير بطريقة منهجية علمية، تناولت وضع حقوق الأفراد والجماعات، والتقييد على حرية التعبير والنقد وحرية التجمعات والسلطة المطلقة للنظام في ممارسة كل أشكال القمع والبطش وتركيز السلطات كلها في يد الأسرة الحاكمة، وأسهب التقرير في شرح واقع القضاء وتفنيد أكذوبة استقلاليته، وأكذوبة أنه يحكم بالشريعة.

ولم نكتف من قبلنا بنشر هذا التقرير باللغة العربية والإنجليزية في حينها، بل رتبنا عملية تسجيل صوتي للتقرير قام بها أحد الأخوة المقيمين بالخارج، ثم أرسل للداخل، ونسخ منه كميات كبيرة، ووزع في جميع أنحاء المملكة.

مملكة الصمت

كما صادفت تلك الفترة إصدار مؤسسة حقوقية أخرى هي منظمة الفقرة 19 . وهي منظمة تعنى بحرية التعبير ويرمز الرقم 19 إلى نص في ميثاق الأمم المتحدة حول حرية التعبير . تقريرا آخر عن الحريات في المملكة، أسمته مملكة الصمت، انتقدت فيه المنع الكامل لجميع أشكال حرية التعبير في المملكة، وحظي التقريران بتغطية إعلامية عالمية جيدة.

الاعتقال الثاني

في نهاية شهر ذي الحجة 1413هـ يونيو 1993 اعتقل الأستاذ عبدالله الحامد في عملية اقتحام وتفتيش شبيهة باعتقال المسعري، حيث أحيط المنزل بعدة سيارات من سيارات المباحث بينهم امرأة لتفتيش النساء، واعتقل بينهم الأستاذ عبدالله الحامد، وصودرت كل ممتلكاته الكتابية والصوتية كما صودر جهاز الفاكس من منزله.

لا تتدخلوا فيما لا يعنيكم

أحس الإخوة في جامعة الملك سعود أن الوضع يتجه إلى مزيد من التوتر والمواجهة، وأنه لابد من التعبير عن عدم الرضى عما يجري بأسلوب أكثر صراحة وتأثيرا، وفعلا بادر مجموعة من الدكاترة من نفس مجموعة لجنة الجامعة للإصلاح والمناصحة التي أعدت مذكرة النصيحة، بادرت لطلب مقابلة مع الملك للتناقش فيما يجري، وكانت الإجابة بأن الملك ليس على استعداد لأن يعطي موعدا مخصصا، وعليهم أن يأتوا إلى الديوان الملكي كما يأتي الناس، ورغم أن هؤلاء الأساتذة يعلمون أن الذين يُسمح لهم بمقابلة الملك مجموعة مختارة، وأن معظم الآخرين يسرحون شبه مطرودين إلا أنهم أصروا على المحاولة، وذلك من أجل تسجيل موقف وإثبات أنهم سعوا للتعبير عما في أنفسهم بالطرق التي يدعي النظام أنها مقبولة، وفعلا توجه عدد كبير من أساتذة الجامعة إلى جدة في نهاية محرم 1414 يوليو 1993م، اجتمعوا في إحدى صالات الديوان الملكي بأمل مقابلة الملك، ولكن فوجئوا بحركة مضحكة من الأمير نايف فاجأت الجميع، حيث فتح الأمير نايف باب الصالة، وأطل عليهم بنصف وجهة قائلا: ''أن الملك يأمركم بان تعودوا من حيث أتيتم، وأن لا تتدخلوا فيما لا يعنيكم وإلا...!!''. حاول الإخوة الرد على الأمير نايف، فبادر بإغلاق الباب والانصراف.

الصفوة في السجن

بعد هذا الاجتماع تتابعت الاعتقالات، حيث دوهم منزل الدكتور خالد الحميضي في غرة صفر 1414هـ أغسطس 1993م، واعتقل الدكتور وأودع في سجن الحائر، وفي التاسع من نفس الشهر اعتقل الشيخ سليمان الرشودي العضو المؤسس في لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية، وفي السابع عشر من نفس الشهر اعتقل الدكتور محسن العواجي أستاذ مشارك في كلية الزراعة قسم التربة، وبعده بيوم اعتقل الدكتور سعد الفقيه الرئيس الحالي للحركة الإسلامية للإصلاح، وفي الإسبوعين التاليين اعتقل كل من الدكتور صالح الدباسي أستاذ علم النفس بكلية التربية والأستاذ الدكتور عبدالله النافع رئيس علم النفس بروفيسور علم النفس ورئيس القسم والدكتور أحمد التويجري العميد السابق بكلية التربية والمحامي، والدكتور سامي الوكيل أستاذ مشارك في كلية الهندسة قسم الإلكترونيات، ثم الشيخ عبدالعزيز القاسم والاستاذ عبدالعزيز الوهيبي المحاضر في جامعة الملك سعود قسم الفيزياء وهو أحد المفكرين الإسلاميين ويعمل قاضيا في الرياض وأبها، كما اعتقل آخرون من خارج الجامعة من الناشطين الإسلاميين في المملكة.

وبذلك اجتمع في السجن ثلاثة من حملة الأستاذية وستة من حملة الدكتوراة ومحاميان وواحد من القضاة وعدد من المحاضرين وحملة الشهادات العليا الأخرى.

إعلام ناجح

أخبار هذه الاعتقالات لم تكن خافية، حيث كانت تصل بانتظام إلى مؤسسة ليبرتي ومن ثم إلى الإعلام العالمي، بل لقد صدرت تقارير خاصة من هيئات حقوق الإنسان حول هذه الاعتقالات ومطالبات بإطلاق سراح سجناء الرأي وخاصة عندما اعتقل الدكتور أحمد التويجري الذي كان له حضور جيد في البيئات الفكرية الإسلامية العالمية.

ملفات قديمة تفتح

بطبيعة الحال كان الباعث وراء حملة الاعتقال ابتداء هو إنشاء لجنة الدفاع عن الحقوق الشريعة، واستمر الحال كذلك إلى ما بعد اعتقال الشيخ سليمان الرشودي، ولكن مسار التحقيق الذي تعرضنا له دل على أن القضية تطورت إلى أبعد من مجرد مواجهة مشكلة اللجنة، لقد فتحت في السجن ملفات كل شيء خطاب العلماء، شريط المدفع العملاق، مذكرة النصيحة، لجنة الجامعة للأصلاح والمناصحة، وأخيرا لجنة الدفاع.

وكانت أهم قضية لدى وزارة الداخلية من بين هذه القضايا هي شريط المدفع العملاق، حيث استحوذت تلك القضية على معظم ملفات التحقيق، ولقد علمنا فيما بعد أن هذه الملفات لم تفتح إلا بعد أن وجدت المباحث بين الأوراق والوثائق التي صادروها من منازل بعض الأخوة ما يدل على علاقته بتلك القضايا، لقد كانت الاعتقالات في زنازين فردية في سجن الحائر، وبقي الجميع في سجن انفرادي إلى أن أطلق سراحهم.

نعم مسؤولون

ولكن رغم هذه الظروف وعدم تمكن الأخوة من الاتصال فيما بينهم وتنسيق الموقف تجاه قضية التحقيق، فقد كان هناك توجه واحد تقريبا هو الإقرار بالمشاركة بتلك الأعمال باعتبارها أعمالا مشروعة، وبواعثها بواعث خير ولا مجال لتجريم الذي ساهم فيها، وكانت كل التفاصيل في التحقيق تدل على أن المجموعة لم تخطط في يوم من الأيام لرفع سلاح أو لإحداث فتنة أو السعي لأي مطالب ومصالح شخصية.

هذا الموقف خفف حدة المواجهة، وسهل إقفال ملفات التحقيق، وعجل بإطلاق سراح الجميع، وأطلق سراح الجميع فعلا حيث لم يبق في السجن بعد شهر سبتمبر 1993 الموافق بداية جمادى الأولى 1417 إلا الدكتور المسعري في السجن الذي أطلق سراحه بعد ذلك بأشهر معدودة.

مرحلة ضرورية

كانت تجربة السجن تجربة هامة جدا ومرحلة ضرورية للمشروع الكبير، لقد كان إقدام السلطة على اعتقال هذه المجموعة من أساتذة الجامعة دليل على أن النظام غير مستعد لتحمل أي نوع من أنواع النقد، وخاصة إذا كان هذا النقد قد صدر من جهة لها كيان محدد، ولم يتردد النظام في علاج القضية بأسلوب البطش والسجن حتى لو كان المستهدفون من صفوة المجتمع ومن أساتذة الجامعة، وحتى لو اقتصروا في أساليبهم على ما يمكن اعتباره في حدود المباح في عرف السلطة نفسها، بل وحتى لو استخدمت فيه نفس شعارات السلطة.

كان ذلك أول دليل على كذب النظام في فتح أبوابه وحسن صلته بالمجتمع وقيادات المجتمع، ولقد تحقق هدف تكذيب النظام في ذلك من خلال التغطية الإعلامية الناجحة لإخبار تلك الاعتقالات، ولم يستطع النظام في مواجهة معرفة الناس بتلك التفاصيل إلباس أي جريمة لتلك المجموعة لتبرير اعتقاله لهم.

الأهمية الثانية لتجربة السجن أن المجموعة المعتقلة تعرفت عن قرب على تركيبة المخابرات ونظام الأمن من الداخل ونظام السجن وقناعة النظام بنفسه وبجنوده وحقيقة مشاعر وطريقة تفكير المنتسبين لجهاز الأمن، ولقد فسرت هذه المعرفة كثيرا من تصرفات النظام وشعوره بالثقة بالنفس رغم الهلهلة والانكشاف في تركيبته الشرعية والسياسية.

توطئة للمعارضة

وكذلك كانت مرحلة السجن مرحلة ضرورية في التوطئة للعمل من الخارج، وذلك حين ثبت أن النظام لن يسمح بأي هامش من حرية التعبير ولا أي شكل من أشكال التجمع مهما كان واضح الشرعية، ولذلك فقد شكلت مرحلة السجن ضرورة لتبرير إنشاء مكتب للعمل في الخارج، ولم يعد بمقدور أحد أن يعترض بعد هذه الحملة وبعد السجن أن يلوم الذين بادروا لاستئناف العمل من الخارج، ولو قدر أن انتقل العمل إلى الخارج قبل تجربة السحن، وقبل أن تقام هذه الحجة لقيل أن هؤلاء لم يستفرغوا الوسع، واستعجلوا المواجهة وأنه لابركة في عمل يقاد من خارج البلد.

تفسير مختلف

النظام من طرفة لم يستوعب هذه القضية، وفسر اعتراف الأخوة المعتقلين بالمساهمة في تلك الأعمال بأنه نتيجة رعبهم وخوفهم من قوة النظام وبطشه، وقرر النظام أن يعيد النظر في بعض الهوامش الصغيرة جدا، فيقفلها، ويقفل الباب إلى الأبد على كل من تحدثه نفسه بأي شكل من النقد أو رفع الصوت.

ولذلك فقد فوجئنا بعد ما خرجنا من السجن أن النظام أوقف العمل بأحد التقاليد العريقة لآل سعود، وهو السماح لأي فرد في البلد أن يكتب إلى أي مسؤول مايشاء، مادام في رسالة خاصة وفردية، وهذان الشرطان لا تلاعب فيهما، خاصة بمعنى سرية وفردية بمعنى أن لايشارك فيها أحد إلا كاتبها، لكن هذا التقليد توقف العمل به فجأة، حين استدعي عدد ممن أرسلوا رسائل وبرقيات خاصة وفردية إلى الملك وبعض المسؤولين، يعترضون فيها على إجراءات الفصل والاعتقالات والسجن، وبعد استدعاءهم تعرضوا للتوبيخ، وطلب منهم كتابة اعتذار عما بدر منهم، وتعهد بعدم كتابة مثل هذه البرقيات والرسائل مرة أخرى وإلا فسيعرضوا أنفسهم للعقاب.

إلى سفر وسلمان

ولعل هذا الشعور بالثقة بالنفس عند النظام واعتقاده بجدوى القمع المطلق هو الذي دفعه لأن يتخذ قرارا بإيقاف الشيخين سلمان العودة وسفر الحوالي عن الدعوة والتدريس، والتي حصلت في أواخر مرحلة السجن، وتتابعت فيها فصول هامة من فصول تاريخ الحركة الإصلاحية في المملكة والتي ستطرق في حلقات قادمة.

أهداف اللجنة

لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية لم تحقق هدفها البسيط المعلن، وهو المساهمة في رفع الظلم من خلال الوسائل المتاحة، فهل كانت اللجنة مشروعا فاشلا؟.

في الحقيقة لم يدر بخلدنا حين سعينا لإنشاء اللجنة أن تتمكن اللجنة من ذلك، فلقد كنا نعلم أن عقلية آل سعود ليست من النوع الذي يستوعب هذه الكيانات، مهما كانت لطيفة أو هينة، حيث لا يسمح آل سعود حتى بإنشاء الجمعيات العلمية التقنية فضلا عن أن يسمحوا أويسكتوا عن مثل هذه المجموعة ذات الطابع السياسي والتوجه الذي يوحي بشيء من المعارضة الخفية، ولم يكن رد فعل النظام بالمستغرب علينا، ولم نتوقع أن نستطيع الرد على تصرف النظام بأكثر مما قمنا به، وهو استثمار القضية إعلاميا، وكنا على قناعة تامة بأن المجتمع لم يصل إلى مرحلة الدفاع عن اللجنة بالمظاهرات أو بالإضرابات أو بالاعتصامات، لقد كنا على قناعة بكل ذلك، وحصل ما توقعناه، إذا فكيف نعتقد أن مشروع اللجنة قد نجح؟.

الخطاب، المذكرة، اللجنة

إن الجواب على هذا السؤال هو ذات الجواب عن نجاح مشروع خطاب العلماء ومذكرة النصيحة، ففي حين لم ينفذ النظام أيا من مطالب الخطاب والمذكرة، فقد كان الخطاب نقطة تحول جوهرية في وعي الأمة تجاه قضية العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وإدراك دور الإسلاميين واعتبارهم صفوة في مقدمة المصلحين، وكانت المذكرة حجة دامغة في أن لدى أولئك الدعاة برنامج تفصيلي واقعي وعملي للإصلاح، وأن النظام هو الذي لايريد الإصلاح.

لقد كان أهم هدف حققه مشروع اللجنة هو القيام عمليا ومن خلال حركة سياسية إعلامية فعالة، بنفس المفهوم الذي طالما رسخه آل سعود في أذهان الناس، وهو تحريم أي شكل من أشكال التعاون أو قيام أي كيان مهما كان مشروعا، وفي نظرنا فإن الجدل الذي طرحته اللجنة من خلال بياناتها وتصريحاتها لم يقف له جدل النظام ولا بيانات هيئة كبار العلماء، ولقد كانت عملية الصراع السياسي هذه وتقديم التضحيات من أجل ذلك دليلا على أن الإسلاميين رائدون في ذلك، وأنهم مستعدون لإزالة التحريف الذي يمارسه آل سعود وأعوانهم من العلماء في نصوص الشريعة حتى توفر لهم السلطة والدكتاتورية المطلقة بمعنى الكلمة. هذا الشعور بحق الأمة في أن تحصل على المنابر المناسبة للنقد والمحاسبة، وتقف خلف قيادات مستعدة للتضحية والإيثار، أصبح ظاهرا جليا بعد مرحلة اللجنة، بل لقد ارتفع مستوى ثقة الفرد العادي بنفسه، وتحطمت قدسية آل سعود وحقهم المطلق من عقله وقلبه، وهذا لاشك مكسب استراتيجي كبير.

إضافة لذلك لقد وفرت تجربة اللجنة المنصة المناسبة لإثارة قضايا هامة جدا سوى شرعية هذا الكيان، فلقد فشا في الناس الحديث عن الظلم وتسلط المتنفذين وفوضى القضاء، وارتفع مستوى الوعي بتغطية الحقوق الشرعية وضرورة الدفاع عنها، وقضايا التعاون عموما لتحقيق أي هدف شرعي.

اللجنة لا تُحتمل

لقد كان مشروع اللجنة مِفصلا في مسيرة الصحوة وخاصة في قضية العلاقة بالنظام، وذلك لأن فكرة الخطاب والمذكرة رغم ما فيها من محتوى يؤذي النظام إلا أن عقلية آل سعود تستطيع امتصاصها واستيعابها، لكن مشروع اللجنة احتوى على المكون الأساسي في قضية التحدي المباشر لذات النظام، وهو كون اللجنة في تعريفها الحقيقي كيانا إنسانيا مستقلا، وهذا الكيان مهما كان بسيطا، ولا يشكل مواجهة للدولة فالقبول به يعني من حيث المبدأ القبول بكيانات أخرى تؤدي في النهاية إلى خلخلة سيطرة آل سعود على البلد والمجتمع والفكر والثقافة والدين وهذا ما جعل مشروع اللجنة نقطة تحول في تاريخ الحركة الإصلاحية أدت إلى انطلاق المواجهة.

الحديث يتوقف

ماذا عملنا بعد السجن؟ وكيف أطلق سراح المسعري؟ ومن الذي سعى لترتيب إخراج اللجنة إلى لندن؟ وكيف هُرّب المسعري إلى اليمن ومن ثم إلى لندن؟ وكيف خرج الفقيه إلى لندن؟ ومن الذي دعم هذا المشروع ماديا ومعنويا؟ وكيف كانت انطلاقة المكتب في لندن؟ وكيف تتابعت ردود الأفعال؟ وكيف تصاعدت المواجهة إلى حوادث بريدة واعتقال الشيخين سلمان وسفر وماذا حصل بعد ذلك؟ كل هذه القضايا لا يمكن الكتابة عنها في الوقت الحاضر لأن أناسا كثيرين سيكونون في خطر أمني واضح، ولذا فإننا نجد أنفسنا مضطرين للوقوف عند هذه المرحلة، عسى أن تنكشف الغمة قريبا ونتمكن بإذن الله من إتمام نشر ما بقي من تاريخ هذه الحقبة الهامة.